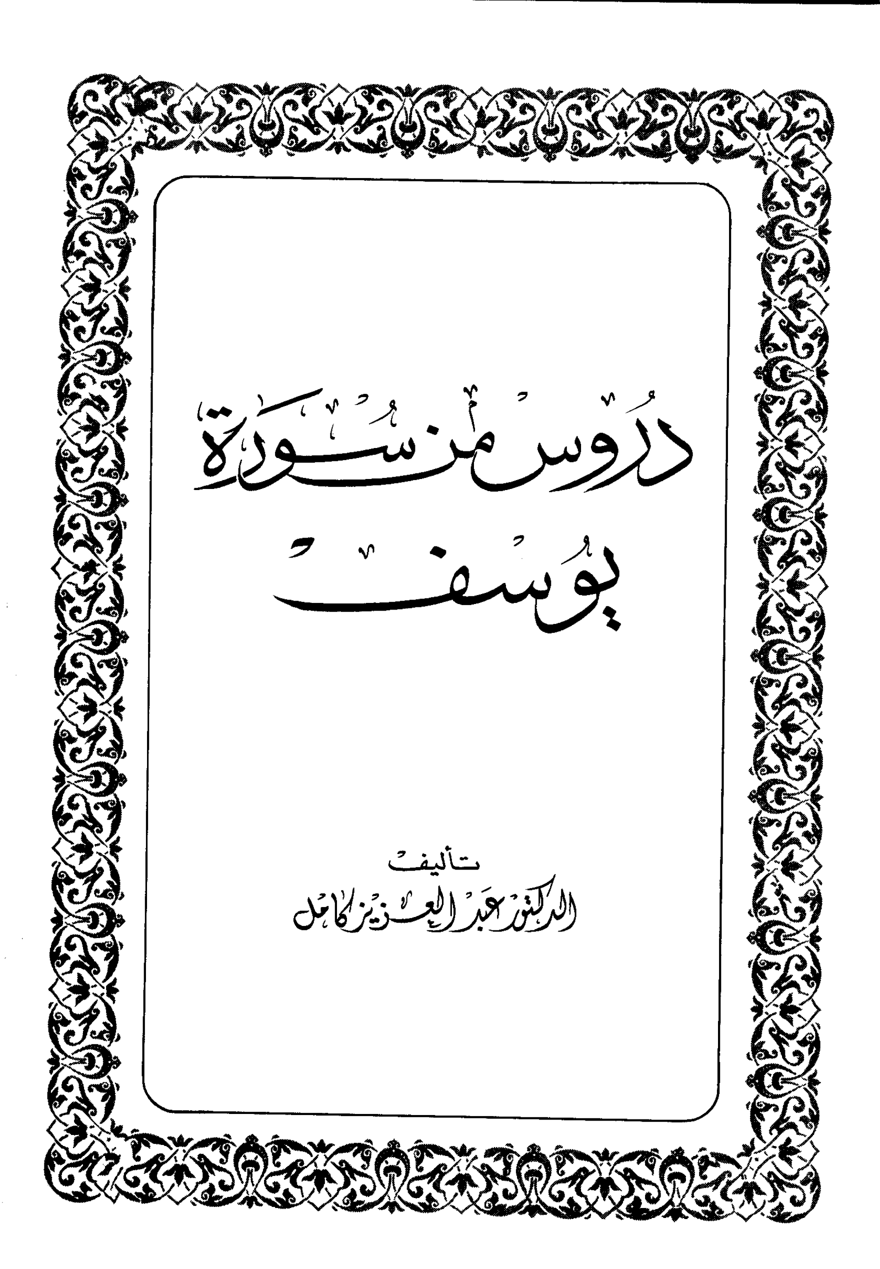


دروس من سورة يوسف

تأليف

الدكتور عبد العزيز كامل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اخوانه النبيين ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهداه الى يوم الدين .

هذه أحاديث عن سورة يوسف ، ولك أن تسأل عن أسباب اختيارها ، والمنهج الذى نحاول ــ بعون الله ــ أن نتبعه فى عرض دروسها :

أولا : هناك سبب عام ، تشترك فيه السورة مع غيرها من سور القرآن الكريم ، وهو أنها جميعا كلام الله . وكلام الله نور: نور نقرؤه ، ونور نعقله ، ونور تخشع له قلوبنا . هو الانيس فى الوحدة ، والصاحب فى السفر ، وهو من الله هدى وهدية ، ندعو الله أن يجعلنا من أهله فى الدنيا والآخرة .

ولقد يسر الله القرآن لعباده فقال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الدخان) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر)

ودعانا المصطفى عليه الصلاة والسلام الى الرحلة فى القرآن الكريم فقال : « عليك بالحال المرتحل : صاحب القرآن ، يضرب فى أوله حتى يبلغ آخره، و يضرب في آخره حتى يبلغ أوله ، كلما حل ارتحل» رواه البيهقي عن ابن عباس .

ثانيا : هناك سبب خاص ، وهو العلاقة القوية بين سورة يوسف ، وقضايا ومشكلات الشباب الاسلامي المعاصر : المقيمين منهم والنازحين . ففى كل عام يرحل من أبنائنا نفر الى عواصم العالم العربي أو الغربي العلمية ، يستكملون دراساتهم العالية ، فى تخصصات لا تتوفر حيث يقيمون بين أسرهم ، وفى هجرتهم العلمية ، هم فى حاجة الى مزيد من الحصانة الفكرية والدينية .

هناك — فى البلد النازح — يجدون حياة غير ما تعودوا ، وقيما غير ما ألفوا . وتضطرب نفوسهم بين سلوك عاشوا به بين أسرهم ، وسلوك يشعرهم بالاغتراب . ما موقفهم .. ؟ كيف يحافظون على أصالتهم وذواتهم .. ؟ كيف يأخذون العلم صافيا ، دون أن يمتصوا مشكلات ، هى جزء هناك من نسيج الحياة اليومية .. ؟ ما معايير الخير والشر ، والصواب والخطأ .. ؟

ومن حولهم تقدم علمي وتقني ، وحياة مائجة بكل جديد من المخترعات ، وتسابق وكفاح وصراع ، وفردية فى التعامل ، يبحث فيها الفرد — أول ما يبحث — عن مصلحته الذاتية ، ولو تخطى رقاب الآخرين أو داس مصالحهم فى سعيه .

هناك يحتاج الشاب أو الفتاة الى نور يهديه ، نور لا تطفؤه عواصف الحياة ، ولا تحجبه غيوم الصراعات والاهواء والشهوات . تماما كما يحتاج ربان السفينة الى البوصلة تريه اتجاه الشمال ، والى أجهزة الرادار تكشف له عقبات الطريق والصخور الظاهرة أو المختفي ، والى السكينة ينزلها الله على قلبه ، فلا يضطرب عند اتخاذ القرار ، ولا يضل وقد تشعبت أمامه الطرق .

ومن فضل الله أن نفرا غير قليل من أبنائنا ذهبوا الى تلك

الديار، واستقروا فيها ، أو عادوا بعد اكمال دراستهم ، وهم يحافظون على أغلى ما حملوه فى سفرهم ، وهو ايمانهم بالله تعالى هاديا ونصيرا . عادوا وقد صقلتهم التجربة ، فازدادوا علما وايمانا ، وأخذوا يردون الى أوطانهم بعض جميلها عليهم ، اذ رعتهم صغارا ، وأنفقت عليهم شبابا . وها هى تفتح صدرها لهم ليتولوا مسئولية تنشئة الجيل الجديد ، أو ليساهموا فى صناعة الحياة الجديدة .

والبعض ، قد جرفه التيار، واكتفى هناك بأصداف الحياة دون جوهرها . وفى الاعماق أصداف وجوهر . عادوا أشكالا قد تشوه مضمونها ، تحتمي بدرجات علميةو شهادات ، يعلم الذين منحوها حقيقة مستواها . شهادات كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا .

وقد يعود البعض — ان عاد — وقد حطمت الشهوات جسومهم ، ودمرت آمالهم ، وأصبحوا فى حاجة الى ترميم وتكوين جديد ، نسأل الله لنا ولهم الهداية والثبات فى الامر، والعزيمة على الرشد ، ذاكرين قول الله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ (الزمر) ٥٣ — ٥٤ .

ثالثا : ان سورة يوسف مكية ، وآياتها احدى عشرة ومائة ،

تعرض قصة واحدة لا نظير لها فى القرآن كله .

جاءت قصة موسى فى أكثر من سورة من سور القرآن ، ومجموع آياتها أكثر . ولكنها لا تصل فى موضع واحد من القرآن الى طول قصة يوسف .

والقصة فى السورة متكاملة ، بينما قصص الانبياء — فى السور الاخرى — يعرض زوايا ومشاهد ، يبرز فيها أمران :

١— أن التركيز القرآني — فى السورة الواحدة — يتجه الى هدف أو أهداف رئيسية واضحة ، كأن يكون تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه ، كما فى سورة طه . أو يكون عرضا لشدة الصراع بين الحق والباطل ثم يأتي من بعده النصر كما فى سورة القصص . أو يكون ابرازا لانصار الله لأوليائه و بطشه بأعداء الحق رغم قوتهم ، كما فى سورة الذار يات .

٢ — الامر الثاني أن تتكامل أجزاء القصة فى السور المتعددة . فاذا السورة واحدة ، واذا القصة واحدة ، و يلتقي الامران فى سورة يوسف .

رابعا : ان سورة يوسف تبين مراحل حياة يوسف عليه السلام والمشكلات التى عرضت له ، أو فرضت عليه ، ثم المسئوليات التى تطوع بحملها ، يخدم فيها أكثر من شعب فى وقت واحد ، وكيف ظل — كما هو — ايمانا بالله واستقامة على أمره . وجوهر الايمان واحد ، وصوره فى المجتمع متنوعة . وقد تنوعت فى القصة صور الايمان : من الرؤيا الصالحة المبشرة ، الى الصبر الجميل ، الى العفة والوفاء ، الى التخطيط العلمى ، الى العدل والقسط ، الى التواضع ، الى الحكمة فى اظهار الحق ، الى دوام الافتقار الى الله ، الى الصفح والمغفرة ، الى

الامل فى رحمة الله بعد بذل الجهد فى طاعته : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ (يوسف)

خامسا : ان القصة ـــ مع هذا الثبات والامتداد فى الشخصية الاساسية ـــ وهى سيدنا يوسف عليه السلام ـــ امتدت على مساحة كبيرة من الارض فى فلسطين ومصر . وشملت بيئات متباينة من البدو والحضر ، ومستويات من الحياة الاجتماعية ، من حياة الرحلة وحياة الاستقرار ، والبيوت المتواضعة والقصور ، والغنى والفقر . وشهدت صورا متنوعة من التجمعات البشرية : مشهد الاسرة من أب وأم وأبناء ، مشهد الوحدة فى الحب ، مشهد الصحبة مع غرباء فى السجن ، مشهد أو مشاهد حياة القصور بما فيها من كيد واغراء ، ونزوات تعصف بالبرئ فى السجن سنين ، مشهد الجموع تطلب القوت ، ومن قبل هذا جموع تزرع وتحصد وتجمع وتحرس السنابل .

سادسا : من الناحية النفسية ترى جوانب النفس فى اشراقها وظلمتها ، فى عدلها وجورها ، فى استقامتها والتوائها . ثم كيف تمر يد الايمان على الجراح فتندمل ، وتنتهي بالعاصي الى التوبة ، وبالبرئ الى الحق ، وبالحاكم الى العدل ، وبالمحكوم الى الرضا والامن ، وبالاسرة الى التجمع بعد شتات .

سابعا : وقصة يوسف ليست سورة لمجرد القراءة التعبدية ، ولكنها ــ والقرآن كله كذلك ــ نور متجدد وهداية متصلة ، ومشكلاتها مما يعرض لشبابنا فى حياتهم . ومن هنا تبدو مكانة الربط بينها و بين قضايا الشباب فى مجتمعاتنا .

وبهذا يتحقق بها ما جاء فى آيتها الخاتم:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

ولنبدأ معا ــ و بعون من الله ــ رحلتنا فى سورة يوسف ، نحل ونرتحل بين آياتها ، عسى أن تكون لنا هدى ورحمة .

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

المنهـــج :

في عرض سورة يوسف وما فيها من دورس وعبر سنحاول السير على هدى سلفنا الصالحين. يقول الامام ابن كثير في مقدمة تفسيره: فان قال قائل، فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب ان أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فانه فسر في موضع آخر. فان أعياك ذلك فعليك بالسنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له. قال تعالى ..

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ (النحل)

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه» يعني السنة المطهرة (جزء من حديث رواه ابو داود عن المقدام بن معدي كرب) .. واذا لم نجده فى الكتاب ولا في السنة،

رجعنا في ذلك الى أقوال الصحابة، فانهم أدرى بذلك، لا سيا علماؤهم وكبراؤهم. فاذا لم نجده عند الصحابة،فقد رجع كثير من الأئمة الى اقوال التابعين.

أما تفسير القرآن بالرأى فحرام. وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار» (رواه ابن جرير عن ابن عباس) لأنه تكلف ما لا علم له به.

المراجــــع:

وفي هذه الاحاديث كان الاعتماد الأول على كتاب الله تعالى، ثم كتب التفسير المأثور وفي مقدمتها تفسير الامام ابن جرير الطبري، ثم تفسير الامام ابن كثير.. كما رجعت الى ما كتب الامامان الجليلان ابن تيمية وابن القيم.

ومن الكتب الحديثة أفدت كثيراً من كتاب، مؤتمر تفسير سورة يوسف، من تأليف العلامة الشيخ عبدالله العلمي الغزي الدمشقي. وصدر في جزأين من الف وخمسمائة صحيفة سنة ١٣٨١ هـ — ١٩٦١م.

وعند هذا الكتاب القيم أريد أن أقف قليلا:

ولد الشيخ عبدالله رحمه الله سنة ١٢٧٩هـ — ١٨٦٢م في بلدة غزة من فلسطين في بيت كريم شريف اشتهر بالعلم والصلاح. وبدأ دراسته في غزه، وتابعها في الازهر الشريف بالقاهرة، ثم عاد الى بلده، وبدأ في المسجد العمري نهضة دينية سرعان ما اجتذبت اليه

طلاب العلم ، وعود تلاميذه أدب الحوار، وفتح امامهم آفاق المعرفة ، ونبغ على يديه جيل جديد، ثم هاجر الى بيروت ، وعاد الى غزه، ثم هاجر الى دمشق للتفسير في المسجد الاموي واستمر في تفسير كتاب الله حتى توفاه الله سنة ١٣٥٥ هـ ـــ ١٩٣٦ م .

وله مؤلفات مطبوعة ومؤلفات لا تزال مخطوطة ، الا أن أبرز عمل علمي له هو تفسير سورة يوسف . و يكفى أن نقرأ معا صحيفة الغلاف لنرى اسلوبا من الربط بين القصة القرآنية ، وما كانت تموج به فلسطين من أحداث ، وتسرب وغزو صهيوني ، ترجع مقدماته الى أواخر القرن التاسع عشر ، وتَمَثَّل بصورة حكومية في وعد بلفور الذي وعد به من لا يملك ، من لا يستحق ، وما قامت به بريطانيا وقتئذ من تيسير الهجرة اليهودية ، والضغط على العرب من مسلمين ومسيحين ، وتخديرهم ، واستلاب الارض منهم .

عاش الشيخ عبدالله العلمي هذه الاحداث الدامية ، والثورات العربية ، ورأى في قصة يوسف ، وما كان من كيد اخوته وغدرهم وحسدهم ، ومسارعتهم الى الاثم ، مشابه مما يلقى قومه من غدر الصهيونية . فعبر عن هدا وهو يشرح القصة في كتابه .

ونعود الى صحيفة الغلاف لنقرأ :

مؤتمر تفسير سورة يوسف عليه السلام . وفيه بيان طبائع الصهيونيين وأن طبائع الآباء موروثة في الابناء ، وكشف حال اليهود وعبرة أهالي فلسطين . . و يعقب هذا على صحيفة الغلاف نـــداء: ياأهالي فلسطين ، و يا أيها العرب والمسلمون ، اقرءوا هذه المحاضرات عن سورة يوسف تعرفوا ما انطوى عليه الصهيونيون مما ورثوه من أصولهم .

ويلي هذا قوله : بقلم كاتب سر المؤتمر الاستاذ العلامة الشيخ عبدالله العلمي الغزي الدمشقي .

كان نشر الكتاب بعد وفاته بربع قرن . وقد ألفه على لسان مؤتمر مفترض عقد في المسجد الاقصى من بيت المقدس ، ودعى اليه عدد كبير من علماء المسلمين والمسلمات الاعلام ، من شتى البلاد ، ومن مختلف الاجناس والالوان ، والهيئات والاختصاصات ، للاشتراك في تفسير هذه السورة الكريمة . وافترض لاعضاء المؤتمر أسماء رمزية منسوبة الى بلادهم وتخصصاتهم ، أو غير ذلك ، وجعل نفسه كاتب سر المؤتمر . ولم يقتصر على التفسير البحث لسورة يوسف ، وانما ضم اليه مباحث تاريخية وأدبية ولغوية واخلاقية واجتماعية ، وردودا على مفتريات على الاسلام والقرآن (١) .

ورجعت ايضا الى ماكتب العلامة يوسف على في ترجمته الانجليزية لمعاني القرآن الكريم ، والملحقات التى ضمها الى الترجمة . ففي قصة يوسف تبين أن شخوصها تمثل نماذج للخير والشر في الحياة العامة ... بحيث أن السورة تصوير لأهم مشكلات الحياة ، والمنهج الذي ينبغي أن يسلكه المؤمن اذا أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا .

وسيظل القرآن هاديا ، ونبعا فياضا يلجأ اليه العلماء ، يأخذون من روائعه ما يقدمونه الى الاجيال الجديدة ، هدى وتثبيتا على طريق الحق .

لم أذكر هذه التفاسير على سبيل الحصر ، وانما لتمثل القطاعات الرئيسية التي أفدت منها في هذه الاحاديث : الكتاب والسنة وأقوال

(١) من مقدمة الكتاب لابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلمي ص ١٠،١١

سلفنا الصالحين. كتب التفسير المأثور. التفاسير اللاحقة والمعاصرة التي قام بها علماء مسلمون من العالم العربي والعالم الاسلامي غير العربي، ولكل منهم آفاقه التي عاش فيها، والتي تجتذبه أكثر من غيرها، عندما يستوحى القصص القرآني.

وابتعدت قاصدا عن الاسرائيليات. ولم الجأ الى الدراسة المقارنة بين ماجاء في القرآن الكريم، وما جاء في سفر التكوين عن قصة يوسف، وبخاصة ما يتعلق بعصمة الانبياء. ولهذه الدراسات مجال متخصص، قد يبعد بنا عما نستهدفه من دراسة القصة وارتباطها الوثيق بقضايا الشباب الاسلامي.

الاطار التاريخي لسورة يوسف :

وبعد هذه الجولة بين المراجع ننتقل الى الاطار التاريخي الذي نزلت فيه سورة يوسف :

أربع سور تتابع نزولها : الاسراء، يونس، هود، ويوسف فهي بهذا من أواخر ما نزل من القرآن في مكة.

ولنستعد معا أبرز الاحداث التي مرت بها الدعوة الاسلامية في تلك الاعوام.

نذكر الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضته قريش على المسلمين وألجأتهم الى شعب بني هاشم : لا بيع ولا شراء ولا زواج ولا تعامل ولا تعاون، ولا طعام الا ما يصل اليهم خفية.. ومضت ثلاث سنوات حتى اهتزت النفوس ورقت بعض القلوب فثارت على هذا العسف، وطالبوا بتمزيق الصحيفة الظالمة التي تعاهدت فيها قوى الشرك.. فوجدوا الارضة قد أكلتها الا كلمتين «باسمك اللهم».

و يفقد الرسول في العام العاشر زوجته خديجه وعمه ابا طالب

خديجه ، أمّنا الكبرىٰ ، وأول من آمن بالمصطفى عليه الصلاة والسلام ، والتي أقسمت له من أول يوم « والله لا يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وابو طالب ، عمه ، الذي وقف الى جواره ، ينصره و يدافع عنه واليه ينسب القول :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وقد جاء الاجل المحتوم .. وكان عام الحزن ، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم يبحث عن النصير في الطائف ، وردته ثقيف ردا جميل .

وأغرت به العبيد والصبيان يحصبونه حتى دميت اقدامه على طريق الحق . و يأتي الاسراء والمعراج يمسح على قلب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، و يفتح امامه ابواب السماوات ، و يرى من آيات ربه الكبرى ، و يرى مكانه بين الانبياء ، ومكانه في السماء والارض ، و بشريات النصر والفتح المبين .

كانت السنوات الاخيرة من العهد المكي بحثا عن قاعدة يفتح بها الاسلام صفحة جديدة ، و ينطلق منها ، بعد أن اشتد بطش قريش ، واتجهت أذهان قادتها الى قتل المصطفى عليه الصلاة السلام .

واذا رجعنا الى السور الاربع المتتابعة في هذه الفترة : الاسراء ، يونس ، هود ، يوسف ، نراها تصور الصراع بين الحق والباطل ، وانتصار الحق بعد مراحل من الصبر والاختبار ، وصدق الله العظيم :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ

فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ
وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

(يونس : ١٠٨ ــ ١٠٩)

يروى ابن جرير الطبرى في تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنه قال:

قالوا: يارسول الله، لو قصصت علينا؟ قال: فنزلت: نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن، وان كنت من قبله لمن الغافلين (١٢ : ١٥٠).

ومعنى: لمن الغافلين: أى لا تعلمه من قبل، ولا شيئا منه.

فما العلاقة بين قصة يوسف و بين السيرة النبوية؟

خطوط كثيرة من التشابه بين القصتين، يثبت الله بها قلوب الذين آمنوا، و يشرق بها فجر النصر بعد ظلمة الليل وطول السرى:

هناك وحدة في النشأة الصالحة، وحب من الاهل الاقربين المخلصين. وهناك حسد وأحقاد تحملاها بالصبر الجميل.

ومع أن المصطفى عليه الصلاة والسلام هاجر من مكة الى المدينة واستبدل دارا بدار، وأن يوسف ايضا أكره على ترك أهله وداره، الا أن كلا منهما لقى في الموطن الجديد تجارب جديدة، فيها ماتطمئن اليه النفس، وفيها مايحتاج الى مقاومة ومدافعة:

على طريق الهجرة تلقى الجب الذي ألقى فيه يوسف، وغار ثور الذي أوى اليه المصطفى صلى الله عليه وسلم وصاحبه.

ولم تخل حياة المدينة من مؤامرات المنافقين، وقبائل اليهود: بني

قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، كذلك لم تخل حياة القصر من مؤامرة امرأة العزيز وحديث النسوة .

كانت حياة المدينة اختبارا في القيادة والمسئولية ، نظم بها الرسول عليه الصلاة والسلام أمرها داخليا وخارجيا ، وأقام بالاخاء والعدل ميزان الحياة الجديدة في تخطيط طويل ، وكذلك كانت حياة يوسف عليه السلام اختباراً في التخطيط الطويل ، الذى يوازن بين الانتاج والادخار والاستهلاك والاستثمار .

حاول المنافقون في المدينة الطعن في البيت النبوي ، وحاولوا الطعن في الصديقة بنت الصديق ، السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، وبرأها الله مما قالوا ، كما حاولت امرأة العزيز وحاشية القصر الطعن في يوسف ، وثبت على طريقه وتقواه ، حتى حصحص الحق ، وظهرت براءة يوسف امام العزيز والملك معا .

عندما عاد الرسول عليه الصلاة والسلام الى مكة فاتحا قال لأهلها :

ـ ما تظنون اني فاعل بكم ؟

ـ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

ـ قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ويوسف عليه السلام ، قال لاخوته ، وهو في سلطانه وقوته ، وقد أظهره الله عليهم :

« لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » .

ثم أكد الصفح بعد أن دخل عليه اخوته ورفع ابويه على العرش ، وخروا له سجدا :

﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ ﴾

(يوسف : ١٠٠)

وكان آخر قول المصطفى عليه الصلاة والسلام في دنيانا، ونظره الى السماء:

«بل الرفيق الأعلى» .

وكان قول يوسف في ختام قصته: ﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾

مشابه كثيرة بين القصتين، واستشهاد من المصطفى عليه الصلاة والسلام، في موقف الصفح عن قريش، بما قال يوسف لاخوته في الموقف المناظر، ثم ابراز طول المدة بين مطلع الدعوة وانتصارها. ولنتأمل قول الله تعالى في سورة يوسف، وبعد أن سرد القصة:

﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾

ومع هذا التشابه نرى فروقا أساسية بين القصتين. وأول هذه الفروق، وهو في ذات الوقت من خصائص الدعوة الاسلامية، ما نقرؤه في مطلع سورة يوسف:

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾

مبين: بيّن حلاله وحرامه، ورشده وهداه.

مبين: لمن تلاه وتدبر مافيه، فجميعه مبين عما فيه.

وهو قرآن «عربي» وعند هذه الكلمة نقف قليلا. ونذكر أن القرآن عربي. والبيئة الطبيعية والبشرية التي نزل فيها عربية. والرسول عليه الصلاة والسلام عربي. وأم القرى ــ مكة ــ التي هاجر منها النبي عربية، والمدينة التي هاجر اليها عربية.

واذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أذن لاصحابه في الهجرة الى الحبشة لأن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد، فقد كانت هجرة موقوتة، «حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه».

كانت هجرة ايواء، والى حين.

لم تكن هجرة استقرار، ولم تكن الحبشة بالموطن الذي يستطيع أن يأوى ثم ينشر دينا ورسالة.

من أجل ذلك كانت الهجرة عربية المصدر، عربية القصد، واستطاعت القاعدة العربية الجديدة أن تفتح أم القرى، مع الاحتفاظ الكامل لها بمكانتها التي أرادها الله لها.

وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ (البقرة: ١٢٥)

ولقد قام المصطفى صلى الله عليه وسلم بتطهير البيت من جديد، وازال الاصنام، وبقى البيت الحرام مثابة للناس وأمنا.

وظل اللسان العربي محفوظا عبر القرون، وما نعلم لغة على ظهر الارض، حافظت على استمرارها ونقائها، كما حافظت العربية لغة القرآن الكريم، والمحفوظة بحفظه. وصدق الله العظم:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾

(الحجر: ٩)

وتستطيع الآن أن تقرأ الادب العربي قبل الاسلامي فتحس جماله، و يتحرك له قلبك وفكرك.

هذا اللسان العربي المبين، له علينا حق، ولنا به سعادة. وقد تعرّض — كما تعرضت الحضارة الاسلامية — لهجمات ضارية، بعضها يشكك في الادب الجاهلي، ومدى صدقه، و بعضها يطعن في شوامخه من شعراء وخطباء وناثرين، و بعضها حاول أن يحل اللهجات العامية في الاقطار العربية محله، ليقطع مابين العرب من اتصال، تمهيدا لقطيعة أكبر بين العرب والمسلمين غير العرب.

فهذا اللسان العربي، الذي أكرمه الله بأن اختاره لسان كتابه في قوله: **«ان انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون».** هذا اللسان هو لنا دين وحضارة ووجود واستمرار. وعلينا أن نزيد ابناءنا منه اقترابا، وله حبا، و به عناية.

ولنذكر دائما أن هذه اللغة تخوض معركة الحياة دائما، وانها المفتاح الاول لفهم كتاب الله..

وليبدأ ابناؤنا — وبالتدريج — بمعرفة معاني المفردات القرآنية. والمفردات في اللغة العربية صورة تشابه تكوين الاسرة العربية والاسلامية. وكيف؟ لنذكر مثالا توضيحيا:

نقول: كتب وكاتب ومكتوب وكتاب.. كلها لها جذر واحد.. ولكن في لغات أخرى — كالانجليزية مثلا — تجد الفرق بين الكلمات المقابلة واسعا.. فاذا انتقلت في العربية الى الاشتقاق والمعاني المجازية وجدت لها روابط بالجذر الاصلي..

هذه دراسة، وهي رياضة عقلية، تريك الصلة بين اللغة

والمجتمع، ونظام اللغة ونظام المجتمع. ان العربية ليست مجرد كلمات ولكنها صورة ايضا لنظام حياة. وصدق الله العظيم:

«انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون».

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

مع ترغيب من الله أن نتدبر القرآن، وقد يسره الله لعباده، ومع ترغيب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن نحل ونرتحل في القرآن، نقرأ توجيها وتحذيرا في حديث رواه ابو داود عن يز يد بن عميرة — وكان من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه — أنه قال: كان لا يجلس مجلسا للذكر، الا قال حين يجلس: الله حكم قسط. هلك المرتابون. فقال معاذ بن جبل يوما: ان وراءكم فتنا يكثر فيها المال، و يفتح فيها القرآن، حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة والعبد والحر، والصغير والكبير. فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني، وقد قرأت القرآن؟ وما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره. فاياكم وما ابتدع، فانما ابتدع ضلالة. وأحذركم ز يفه الحكيم، فان

الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق. قال: قلت لمعاذ: وما ندري ــ رحمك الله ــ أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق يقول كلمة الحق؟
قال: بلى اجتنب من الحكيم المشتهرات، التي يقال لها: ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه، فانه لعله يراجع وتلق الحق اذا سمعته، فان على الحق نورا (١).

ونعود الى النص القرآني، سائلين الله أن يجعل لنا على الحق

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

وكانت الرؤيا فيهم وحيا (٢).

ولنتأمل في هذه الرؤيا:

في عالم الشهادة عندما تظهر الشمس تختفي الكواكب، وقد يبدو القمر. وقد درجنا على ربط الشمس بالنهار، والليل بالقمر والكواكب، فكيف تلتقي جميعا في مشهد واحد.؟

ومن منا يستطيع أن يطيل التحديق في الشمس، يرقب حركتها، الا اذا كانت في شروق أو غروب؟ وكيف أحصى يوسف الكواكب، ثم ما كيفية سجودها؟ كيف يسجد كوكب؟ وكيف تسجد الشمس والقمر؟

---

(١) جامع الاصول لابن الأثير: ١٠:٤١٣ ــ ٤١٤ حديث رقم ٧٤٨٧

(٢) تفسير الطبرى ١٢: ١٥١ ط. الحلبي مصر

وللسجود ـــ لغة ـــ أكثر من صورة. أقربها الى أذهاننا صورة السجود في الصلاة، بعظامنا السبع: الوجه والكفين والركبتين والقدمين، خضوعا لله، داعين بما تعلمنا من رسولنا عليه الصلا والسلام «سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه و بصره» وهذا سجود باختيار.

هناك السجود الكوني الذي نقرؤه في قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ (الرعد)

في السجود خضوع، وتذلل، وطاعة، واحترام. ونقرأ في سورة الحج آية تجمع السجود الكوني والاختياري في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ (الحج:) هذا كله سجود لله..

لقد رأى يوسف عددا محددا من الكواكب تجتمع مع الشمس والقمر في مشهد سجود واحد. هذا ليس مشهدا كونيا، ولكنه مشهد

رمزي. ذهب به يوسف ــ وهو القلب الذي شهد الرؤ يا ــ الى أبيه يعقوب.

يوسف الذي وصفه المصطفى عليه الصلاة والسلام يقول:

«ان الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم: يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم» (أخرجه البخاري عن ابن عمر «رضى»).

وفي المشهد ايحاء آخر:

«اني رأيت أحد عشر كوكبا، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» تكرار فعل: رأيت، رأيتهم، ثم الجار والمجرور: لي. فهنا تأكيد الرؤ ية والسجود، وأن السجود كان له.

و يأتي السجود في القرآن بمعنى الحركة الدالة على الخضوع والتواضع وذلك ــ كمثال ــ في أمر الله لبني اسرائيل،

﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا ﴾ (البقرة)

فالدخول حركة. وسجدا: في تواضع لله تعالى. والسجود هنا مصاحب لحركة، بينما سجود العبادة والصلاة استقرار.

كان السجود اذن رمزا لعلو ومكانة يوسف، وقد أصبح على خزائن الارض، ورفع ابو يه على العرش احتراما وحبا، وأقروا له بالطاعة. وكلمته ــ بمنزلته ــ هي العليا بين أهله، وعلى خزائن الارض.

وهذه المكانة التي استشفها يعقوب من رؤ يا ولده، مجلبة للحسد والكيد.

وهي لم تكن من يوسف باختيار ولا سعي.

و يبدو هذا من قول الله تعالى على لسان يعقوب «**وكذلك يجتبيك ربك، و يعلمك من تأويل الاحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق، ان ربك عليم حكيم**».

ونعود الى قول الله تعالى «**الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس**» هناك اصطفاء لافراد كما نرى في النبيين. وهناك اصطفاء لأمم كما نرى في هذه الأمة المحمدية. ونقرأ معا قول الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾

(الحج)

وكان الاجتباء تكريما واختيارا ومراحل متوالية من المحن تأتيه من قريب ومن بعيد: من اخوته، من القافلة العابرة، من سيدة القصر، من نسوة المدينة. محن تنتزعه من حنان أبيه ورعايته، وتلقي به مظلوما في غيابة الجب. وتجعله، وهو النبي سليل بيت النبوة، يباع بثمن بخس دراهم معدودة، وتعرضه للغواية والاغراء، وهو الطاهر العفيف، حافظ حق الله وحق من أئتمنه على ماله وعرضه. غريب عن داره وأهله، أنيس بايمانه وربه.

ولقد أخبره أبوه بوعد الله: أن يعلمه من تأويل الاحاديث ويتم

نعمته عليه.. فكان يوسف يفيد علما من حياة يمارسها، وعلما مما يفيضه الله عليه بصيرة وتدبرا.

ولنتأمل أسماء الله الحسنى في خواتيم الآية: **«ان ربك عليم حكيم»**:

ربك: بالضمير المتصل. ربك الذي رباك، و يرعاك في كل أمرك. عليم بكل أمرك. و يفيض عليك من علمه. حكيم يلهمك الحكمة والتصرف السديد في الموقف.

ذلك لأن العلم وحده لا يكفي. ولا يفيد بغير الحكمة. وعند هذه نقف قليلا:

فما مر على يوسف، كانت مواقف لا تقتضي مجرد العلم وانما الاختيار بين بدائل متعددة. وهذه هي الحكمة. ومن هنا يأتي الترابط الوثيق بين قوله تعالى **«وكذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك..» الى قوله تعالى «ان ربك عليم حكيم»**.

ولنضرب مثالا يقرّب العلاقة بين العلم والحكمة. عاش المصطفى عليه الصلاة والسلام في مكة ثلاثة عشر عاما، وأصنام الكعبة أمامه منصوبة، ما حطم منها صنما. من جهة العلم، وجودها حرام، وعبادتها حرام، وازالتها فريضة. من جهة الحكمة، لم يئن أوان تحطيمها، فتركها المصطفى عليه الصلاة والسلام حتى عاد في عام الفتح، اسقطها ولم تعد هي الى الكعبة، و بقيت الكعبة طاهرة من الأوثان في حراسة المجتمع المؤمن القادر على اقامة السلام والدفاع عن قداسة الكعبة. هنا الحكمة الملائمة للرسالة الخاتم، تضاف الى العلم.

ولقد كان لهذه الحكمة مظهر آخر في قصة سيدنا ابراهيم عندما حطم الاصنام، ودار بينه و بين قومه الحوار، واقام عليهم الحجة ثم ألقوه في النار، وانجاه الله بمعجزة، وهاجر من الديار و بقيت فيها الاصنام.

وأنت ترى في قصة يوسف وصبره، مرحلة وسطا بين المنطق الابراهيمي، والمنطق المحمدي، ولكل منها وقته..

أرأيت العلاقة بين العلم والحكمة؟ وسنعود الى هذا بشيء من التفصيل فيما نستقبل من أحاديث.

۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ
يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ
بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ
أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

القصة معروفة لنا جميعا منذ الصغر. وكلماتها سهلة ميسرة.

وصدق الله العظيم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر)

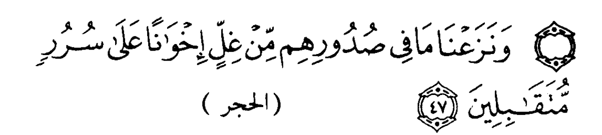
ولكن قراءه القصة شيء ومعاناة المشاهد المناظرة فيها، أو بعضها شيء آخر.

ولنبدأ بسؤال: ماذنب يوسف؟ لكي يناله هذا الأذى من أقرب الناس اليه: اخوته؟ والمفروض فيهم حمايته وحبه، وهو الصغير، وألا يجعلوه طرفا في خصومة لا يد له فيها، ثم يحددون موقفهم منه ومن النبي الوالد. و يصدرون الحكم غيابيا، ويحتالون على تنفيذه، ثم ينفذونه باسلوب ماكر. فلا هم قتلوا يوسف، ولا هم تركوه قادرا على حماية نفسه، أو قادرا حتى على الحركة، من المكان الذي ألقوه فيه.

وأنت اذا استعدت بعض مواقف حياتك، أو مشاهد من حياة بعض من تعرف، وجدت أذى أصابهم أو أصابك دون أي ذنب جنيته، الا أن تكون موفقا في عملك. محبوبا من أهلك وزملائك.. فاذا التوفيق وحده والنجاح يجذب اليك الحسد والبغضاء، وتلق السوء من أفراد لا تتوقع منهم السوء. وتسأل نفسك:

ـــ ماذا فعلت حتى يكون هذا جزائي؟ وأي ذنب جنيت؟
لا ذنب ولا جنية. ولكنها عواقب النجاح. الحسد والمكر السيء.
هنا في أقرب الناس تجد العداوة من حيث لا تحتسب، والاحقاد.

ولهذا جعل الله الجنة هي الدار التي لا غل فيها ولا حسد ووصف أهلها بقوله:



هناك في جنة الله، اخاء بلا غل، وحب بلا حسد.

أما هنا، فمن أبناء الانبياء قد تجد:

«اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين».

ولنذكر مواقف قريش مع المصطفى عليه الصلاة والسلام. ومن قبل هذا ما قاله له ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ام المؤمنين وكان هذا لاول الاسلام ومطلع النور «ولم يكن نزل من القرآن الا قوله تعالى»

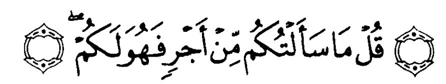
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

(العلق: ١ ــ ٥)

قال له ورقة: والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى. ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه، ولتقاتلنه. ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرا يعلمه

(سيرة ابن هشام: ١: ٢٥٤)

ماذا أراد الرسول لقومه؟ نسمع معا قول الله تعالى:



(سبأ: ٤٧)

(١) هذه هاء السكت ــ انظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٥٤ ط الحلبي مصر.

كان يريد أن يحرر الناس من عبادة الناس، وظلم الناس وأن يصالح الانسانية على ربها:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾

وقامت العداوات، وأوذي المصطفى عليه الصلاة والسلام والذين معه في أنفسهم وأموالهم، وما وجدت قريش وسيلة تصد بها عن الايمان بالله الا سلكتها، حتى تآمرت على قتل النبي عليه الصلاة والسلام وأن يضيع دمه بين القبائل.

ماالفرق بين تآمر قريش في دار الندوة وتآمر اخوة يوسف عليه؟ ماالفرق بين حرمان يوسف من أهله وداره، وحرمان المصطفى من مكه وهي داره وأحب أرض الله الى الله، وأحب أرض الله اليه؟ ما الفرق بين عصبة تتآمر على قتل يوسف، وقبائل تتآمر على قتل محمد عليهما الصلاة والسلام؟

وبعد هذا طريق طويل: الجب فيه يقابل الغار. والمدينة تقابل مصر. تآمر القصر على يوسف، يقابل تآمر المنافقين واليهود على الرسول صلى الله عليه وسلم.

أرأيت ان نزول سورة يوسف في أواخر العهد المكي، كان من آيات رحمة الله تعالى للمصطفى والذين آمنوا معه؟

وكانت بشريات عهد جديد في وطن جديد، ونصر من الله وفتح قريب؟

أمر آخر: هو التدبير الماكر من اخوة يوسف، ولا تزال آثاره تسري في دماء ذرية منهم، نصطلى بمكرها في فلسطين: التآمر. نكث العهود. الدم الكذب. البكاء المصطنع. اعداد الدولة المزيفة الاجماع على الشر.

كل هذه الصفحات من التاريخ القديم، مع أقرب الناس اليهم — أخيهم غير الشقيق يوسف — نجد نظائرها في التاريخ الحديث. وبين الحديث والقديم، قاسى منها المصطفى عليه الصلاة والسلام في العهد المدني: من بنى قينقاع أولا، ومن بعدهم بنو النضير، ثم بنو قريظة، ووصل الأمر مداه في غزوة خيبر، عندما قدموا اليه الطعام المسموم.

ونعود الى اخوة يوسف وهم يقولون لأبيهم:

— مالك لا تأمنا على يوسف، وانا له لناصحون. أرسله معنا غدا يرتع ويلعب، وانا له لحافظون.

وهم يعلمون أن أباهم نبى من عند الله. وأن الله قد يوحي اليه بكذبهم واجرامهم. ومع هذا يبلغ بهم الكيد أن يكذبوا على أبيهم النبي!! وحجتهم أن أباهم «في ضلال مبين» وهو قطعا ليس ضلالا يتعلق بالنبوة، فلو قالوها لكفروا. لكنه — عندهم — ضلال الحب الذي صرف بعضه عن الاخوة الكبار الى الاخوين الصغيرين.

ولم يكن يعقوب يكره هؤلاء العشرة، بدليل قولهم «ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا» فيعقوب يحب أبناءه جميعا، وان كان حبه للصغيرين أشد.

أيدفع مزيد الحب الى القتل أو الطرح أرضا، ليخلو لهم وجه أبيهم، و يكونوا من بعده قوما صالحين؟ وأي صلاح هذا؟

وكانت حجة يعقوب: حزنه اذا ابتعد عنه يوسف، وخوفه من غفلة اخوته عنه، فيأكله الذئب، وهو صغير لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ورد الاخوة بحجتين: في ذهاب يوسف اسعاد له بالرتع واللعب، ثم هو في رفقة آمنة بين اخوته.

قالوا هذا وهم يعلمون أن الأمر كله كذب وتآمر.

ان الله — سبحانه وتعالى — يخبرنا في كتابه العزيز ان طريق الصالحين فيه المكاره والاشواك. وأن الايمان قرين الاختبار والامتحان. وأن الامتحان صنوف: منه ما هو ظاهر السبب نستطيع أن نربط فيه بين المقدمة والنتيجة. ومنه ما هو مجهول السبب — أو على الاقل غير ظاهر — تحركه نوازع النفس الامارة بالسوء.

يقول الله تعالى:

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

(العنكبوت: ٢ — ٤)

ولك أن ترجع الى النسق القرآني من سورة الاسراء الى سورة يوسف وبينها يونس وهود، لتحس روعة الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، والايمان والكفر، ثم انتصار الايمان، بعد أن يبذل المؤمنون أقصى الجهد، لينالوا حسن الثواب

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

(يوسف: ١١٠)

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

فى هذه الآية الكريمة اختصار للزمان والمكان : أولها فى فلسطين وآخرها فى مصر بعد سنين . أولها فى البادية والجب وآخرها فى مسئولية الحكم . أولها فى غيابة الجب ، وحيدا ليس معه الا الله ، وآخرها وسط فتيانه وسلطانه وتكاثر الطالبين حوله .

فلما ذهبوا به . من هم ؟ انهم اخوته ، الذين أكل الحسد والحقد قلوب بعضهم ، واستولى الضعف والخوف على قلوب البعض . وشعاع من الاخاء يمر فى النفوس فيحول بينها وبين قتل يوسف ، و ينتهي الاجماع الى أن يجعلوه فى غيابة الجب .

وعند هذه الكلمة نقف قليلا .

ما الفرق بين الجب والبئر . . ؟

الجب هو البئر التى لم تطو أي لم تبن بالحجارة ونحوها ، بل جبت جبا ، أي قطعت قطعا فى الصخر بالمعاول والفئوس .

وغيابة الجب ما غاب من أسفله من جوانبه المرتفعة ، عادة عن وسطه . وقد تتجمع بقية من الماء فى الجورة المتوسطة فى قعره .

أمامنا الآن صورة الجب : قاع غير مستو، فيه أجزاء مرتفعة قليلا ، غائبة عن النظر، يمكن أن يجلس عليها يوسف ، فلا تبتل ملابسه ، وأمامه بقية من ماء ، قد تقصدها قافلة مارة ، و يستطيع أن يرتوي منها الى حين . والجوانب المجبوبة مما يستطيع الصاعد أو الهابط أن يستعين بها فى الحركة ، بخلاف الجوانب المطوية الملساء من الحجارة.

ولا تزال الجباب الصخرية ، منتشرة فى صحاري فلسطين ، وبها تبدو دقة تعبير القرآن بالجب ، وهو غير تعبير البئر، الذى جاء فى سفر التكوين .

يوسف فى الجب ، نذكر معه أكثر من نبي :

يونس فى بطن الحوت : منه دعاء ومن الله استجابة :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾

(الانبياء ٧٧ — ٨٨)

محمد عليه وعلى جميع الانبياء الصلاة والسلام فى غار ثور. والقرآن الكريم يعلمنا :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

وقد تحقق وعد الله لهم جميعا :

تحقق ليوسف من بعد محنته ، و بعد أن رأى تحقيق أمانيه جميعا يدعو ربه بالامنية الكبرى :

﴿ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ (يوسف : ١٠١)

تحقق ليونس وتقرأ فى أمره بعد أن أنجاه الله :

﴿ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾ (الصافات : ١٤٥ — ١٤٨)

تحقق لمحمد عليه صلوات الله وسلامه . ونزل عليه قول الله تعالى بمنى فى حجة الوداع :

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

(سورة النصر)

وهى آخر ما نزل من سور القرآن الكريم .

وتستطيع أن ترجع الى القرآن الكريم لتقرأ نظائر لهذه البشارات :

بين موقف عصيب يشهده النبي ، أو من اختاره الله ليكون نبيا ، و بين الفرج الذى يأتي بعد الشدة .

عد الى قول الله تعالى عن موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

(القصص)

فجمع الله تعالى فى هذه الآية بين أمر ين ونهيين و بشارتين :

الامران : أرضعيه ، ألقيه فى اليم .

النهيان : لا تخافي ، ولا تحزني .

البشارتان : انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين .

ونعود الى يوسف فى غيابة الجب ، وقد انصرف عنه اخوته ، وبقي بين الصخر والظلمة والوحدة والخوف . أي حشرة أو ثعبان قد ينسل من شقوق الصخور . قد تنزلق صخرة . قد يطول به المقام .

وفى قلبه و بين عينيه نور من وعد الله . أخبره به أبوه من قبل :

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

انه فى الجب ، ينتظر مرحلة جديدة من تأو يل قول الله تعالى : **« و يتم نعمته عليك » .**

وفى قرار المحنة ، أو بعد أن يبذل الانسان أقصى الجهد ، تأتي بشريات الخير. هكذا يعلمنا الله تعالى . . ونعيد قراءة الآية الكريمة :

«فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون »٠

قبل هذا ، كانت الرؤ يا هى التى تحمل البشرى ، أما الآن فالوحي مباشر « أوحينا اليه » ومن بعده التأكيد « لتنبئنهم » وتحديد **موضوع الأنباء « بأمرهم هذا» و يوسف في موضع القوة التي تحجب عنهم معرفته « وهم لا يشعرون» .**

ونقرأ في هذا السياق قول الله تعالى، الذى يأتي قاعدة لا تتخلف، وسنة من سنن الدعوات:

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ

(يوسف ١١٠)

وفى سورة البقرة نقرأ قوله تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

وجاء وحي الله يوسف في غيابة الجب، فكان نورا جديدا مع نور البشارة السابقة من ابيه يعقوب.

وقبل أن نرحل مع القصة الى آية جديدة، نقف عن ناحية بلاغية فيها.

ولنذكر قول الله تعالى في صدر القصة والسورة.

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

«كتاب مبين، قرآنا عربيا» ومن حق هذه اللغة التي اختارها الله ان ينزل بها كتابه، وأن يقرأ بها وحيه، وأن تحمل خاتم الرسالات والكتب، وخبر السماء الى الأرض، من حقها علينا أن نطيل التأمل في نسجها القرآني، فهو جانب من اعجازه.

يقول الله تعالى: « فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ » ﴿١٥﴾ (يوسف)

ونسأل: لما ذهبوا به، ماذا حدث؟ اين جواب «لما ذهبوا به»؟

نحن نحسّه، ونستطيع ان نتصور جانبا منه. اخوة يلقون اخاهم في غيابة الجب. كيف أنزلوه؟ كيف خدعوه؟ أم كيف اجبروه، ثم تركوه؟.

لا يذكر القرآن شيئا من ذلك استعظاما له، بل استبشاعا له.

فهو أمر يثقل قوله وسماعه، بل وتصوره، من أبناء نبي، واخوة نبي، يمارسون ظلما لا مبرر له، الا الحسد وفساد النفوس لعل هذا ان يفسر جواب «لما ذهبوا به».

أمثلة قرآنية أخرى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾

وقوله تعالى:

فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ (الانعام: ٣٥)

في الآية يحذف الجواب، لدلالة المذكور عليه، مما لا تحيط به العبارة، وليدع لحركة النفس مجالا في التصور والتصوير.

كلمة اخرى في الآية الكريمة نقف عندها، وهو قوله تعالى «**وأوحينا اليه**». بأي صورة كان الوحي؟ وما اتساع دلالة الكلمة؟ وهي من الكلمات والمفاهيم الاساسية في الفكر الاسلامي بعامه، وفي فهم القرآن بخاصة؟ ولا تزال تثير في الحوار الديني قضايا كثيرة، لا تقف عند حدود الاسلام وحده. من أجل ذلك نرجو ان تخصص لها حديثا وحدها.

قوله تعالى في ختام الآية «**لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**». لفظ يشعرون، هنا، لماذا؟ لم يقل ربنا: يعلمون. حتى مجرد الشعور بأي رباط بين حادث الجب والانباء عنه، نفاه الله عنهم.. لا شعور ولا علم.. بينما كانوا عند الجب مدركين وشاعرين تماما بما يعملون، وهكذا تتسع الفجوة بين الموقفين، و يبدو في الاتساع اعماق الظلم وآفاق الرحمة.

وصدق الله العظيم.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ (النساء)

الوحي : ما آفاقه.. ؟

يقول الله تعالى عن يوسف في الجب «**وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**».

فما آفاق الوحي الالهي في القرآن الكريم ؟

جاءت هذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن نحو سبعين مرة.

وهي في آفاق ثلاثة متدرجة. ولكل أفق منها مجالاته.

الأفق الأول : هو الامر الكوني. هو القوانين التي يسير بها الوجود: ما فيه من جماد ونبات وحيوان وانسان. نحن نقول: هذا جماد وهذا نبات.. فقط للتمييز بينها. ولكن عمقا واتساعا يبدو ان أمامنا عندما نقرأ قول الله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

(الاسراء)

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ﴾

(فصلت ١٢)

الوجود كله استقبل الوحي. الوجود كله ساجد. الوجود كله مسبّح.

ومن هذا التعميم نرى بعض المستويات:
في مستوى الجماد نقرأ:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

(البقرة: ٥٩)

وفي عالم النبات نقرأ أمرا لشجرة أن تنبت على نبي. يقول الله في قصة يونس، بعد أن ألقاه الحوت على الشاطىء:

﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾

(الصفات: ١٤٦)

وفي عالم الحيوان نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (النحل)

ولا زال العلماء يتابعون البحث في اسرار خلق النحل وأساليب حياته وقول الله تعالى «**وأوحي ربك الى النحل**» .

وعالم الاسماك ايضا له وحيه . ونقرأ في القرآن عن الحوت الذي كان مع فتى موسى .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

(الكهف)

كيف انطلق الحوت في الماء ، في ذلك المكان بالذات ؟ هذه مستويات الافق الكوني نراها مجموعتين كبيرتين ، الاولى : قوانين تسير بها الحياة . والثانية : أحداث بعينها في عالم الجماد والنبات والحيوان . .

الأفق الثاني : و يقتصر على البشر ، وهو رعاية من الله ورحمة دون أفق الانبياء . انه توجيه الهي ، و بشارات في مواقف تشتد فيها حاجة العبد الى توجيه ربه ، وهو يحمل جانبا من مسئولية الدعوة الى الله ، أو يأتي حماية لنبي أو رعاية له ، حتى يكلفه الله بحمل الرسالة .

وفي هذا نقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

(القصص)

كيف تلقى الام ولدها في اليم ؟ كيف تلقيه بيدها دون خوف ولا حزن؟ ذلك لأن الخوف والحزن قد يكشفان جانبا من الستر الالهي الذي ذكره الله في قوله لموسى «**والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني**» . ثم بين النهى عن حزن وخوف، ولتجميع النفس حتى تحمل المسئولية، نقرأ بشارة قريبة : انا رادوه اليك، وبشارة آجله : جاعلوه من المرسلين .

الأفق الثالث : وهذا مقام الوحي النبوي . وفيه نقرأ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

(النساء : ١٦٣ ــ ١٦٥)

وبين في آية أخرى كيف يكلم الله أنبياءه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(الشورى : ٥١)

والوحي في ذاته معجزة في الدين. ولكن من آثار الوحي ما مضى مع التاريخ: أين عصا موسى، والبحر المنشق؟ أين سفينة نوح؟ أين ناقة صالح؟ أين من أحياه عيسى بأمر الله بعد موته؟ ومن شفاهم بأمر الله بعد مرض أو عمى؟

بقي أمران: الاول: هذه القوانين الكونية التي يسير بها الوجود، وهي دعوة دائمة مفتوحة للتأمل:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

(آل عمران: ١٩٠ ــ ١٩١)

والثاني: هذا الكتاب المبين الذي نقرأ أمره فيه:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(البقرة ٢)

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

(الاسراء:٩)

و يصف المصطفى عليه الصلاة والسلام العلاقة بين القرآن وبقية معجزات الانبياء فيقول:

«ما من الانبياء نبي الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي أوتيته وحيا اوحاه الله اليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». (رواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة).

والقرآن كتاب الله المقروء والمسموع والمكتوب، والكون كتاب الله المنظور، سوره السماوات والارض، وآياته ما بث الله فيها.. ولقد سمى الله تعالى خلقه «آيات». هي آيات للعالمين، ولقوم يعقلون، ولقوم يتفكرون، ولأولى الالباب.

والوحي ــ لغة ــ اعلام مع خفاء وسرعة. وقد ترد الكلمة في القرآن في مجال الاغواء والاضلال.

يقول الله تعالى

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾

(الانعام: ١١٢)

و يقول تعالى

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام ١٢١)

والمقصود هنا الاعلام مع خفاء.

ونود أن نقف عند هذا الجزء من الحديث الشريف **«وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله اليّ، فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».**

ذلك لأن قضية استمرار الوحي كانت من المشكلات التي خاضت فيها فرق حاولت أن تجمع بين الايمان بالرسالة المحمدية، واستمرار الوحي، كما أن بعض الفرق ــ من غير المسلمين ــ يؤمنون أن روح القدس يتصل بافراد مختارين يلقي اليهم القول أو يوجههم فيما يعملون.

لا نود أن نخوض في هذا الأمر، انما نقف ــ كما تعلمنا من القرآن ــ عند قول ربنا:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن

رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾

(الاحزاب)

ونؤمن أن «خاتم» هنا بمعنى اتمام رسالة الاديان، وأن على الانسان أن يشق طريقه في الحياة بنورين من وحي الله والعقل، وأن على المجتمع الاسلامي أن «يجتهد» في مقابلة المشكلات التي تتفتح على تقدم الحياة، واتساع مجالات العلم فيها.

بين أيدينا كتاب الله، وسنة رسوله، وأمامنا مجالات الاجتهاد. وعلى علماء المسلمين — كل في اختصاصه — أن يدرسوا قضاياهم ومتغيرات الحياة، وأن يبتكروا الحلول الملائمة لها. ولكل من فهم القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والاجتهاد، قواعده وأساليبه ووسائله، التي عني بها علماؤنا، وبذلوا فيها الجهد تحديدا وتوضيحا وتطبيقا.

هذا هو أسلم الطرق وأقربها للتقوى، وأشدها ارتباطا بالكتاب والسنة النبوية المطهرة.

وفي ختم النبوة وختم الوحي، نذكر حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، موضحا ومبينا لما جاء في القرآن الكريم:

«ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، الا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين..» (متفق عليه من حديث ابى هريرة: اللؤلؤ والمرجان رقم ١٤٧٣).

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨ ﴾

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون » :

وبهذا اختاروا وقت العودة ، فيصعب ، و يستحيل على أبيهم فى ظلمة الليل أن يخرج الى المكان الذى كانوا فيه . وليس أمامه — حتى لو أراد الذهاب — الا أن ينتظر الى الصباح .. وماذا يكشف الصباح — كما ادعوا — عن فريسة أكلها الذئب .. ؟

وبهذا حالوا — أولا — بين الوالد والذهاب الى المكان الذى تركوا فيه يوسف .

كما اختاروا الوقت ، رسموا منظر الدخول : عصبة تدخل باكية . مسرحية يمثلونها أمام الأب المفجوع ، و بطلها المفقود أخوهم الصغير . والأخ الثانى يعقد الخوف لسانه ، فلا يستطيع القول والا أدركه نفس المصير .

هل كان عليه أن يبكي مع الباكين .. ؟ لعله كان أحرهم بكاء ، فهو يبكى أخاه الملقى فى غيابة الجب . ودموعه صادقة ، وقلبه موزع بين الحزن والخوف . واخوته يخالسونه النظر المنذر بالشر ، لو تحدث بما يعرف .

وأضافوا الى التوقيت والصوت قصة مز يفة : « يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » .

وقبل أن يتكلم الوالد الحز ين صادروا على قوله بقولهم : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » .

ثم أضافوا الى التوقيت الصورة والقصة المز يفة والمصادرة على الوالد ، أضافوا الى هذا كله دليلا ماديا مز يفا : « وجاءوا على قميصه بدم كذب » .

وفى هذا اشارة الى أنهم جردوا يوسف من قميصه ليتخذوا منه دليلا ، والقوه فى غيابة الجب دون قميص . وامضى يوسف ما شاء الله أن يمضي فى غيابة الجب بين الظلمة و برد الليل وقلة الملبس والطعام .

فماذا كان رد الأب المفجوع .. ؟ « بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

ثلاث جمل.. الاولى موجهة الى أولاده : بل سولت لكم أنفسكم امرا . والثانية يخاطب بها نفسه : فصبر جميل . والثالثة يخاطب بها ربه : والله المستعان على ما تصفون .

لم يدخل يعقوب فى مناقشة تفصيلية لما أعدوا وساقوا من أدلة . ورآها جميعا تدور حول أمر واحد ، هو التخلص من يوسف . فقال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا . ما الامر .. ؟ لم يصرح لأولاده به ، وفى كتب التفسير تفنيد لما ساقوه من أدلة : القميص غير الممزق . الدم الكذب . مخالفتهم عن أمر أبيهم ، وقد وعدوا بالحرص على يوسف ، وألا يتركوه وحده . خشية الوالد اهمالهم أو تآمرهم على يوسف . وتحس تغير النبرة والاسلوب من قول يعقوب قبل ذهاب أولاده : «اني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون» . الى أسلوب فيه ادانة « بل سولت لكم أنفسكم أمرا » ولم يصرح بهذا الامر . ونتيجته أمامه واضحة ، وهى اختفاء يوسف من بيت يعقوب .

وليس امامه ، والجناة أولاده ، والمجني عليه أصغرهم ، الا أن يبادر الى الصبر الجميل ، فجاء التعقيب بالفاء « فصبر جميل » لا يستطيع أن يتابعه الا بعون من الله تعالى .. عون على ما كان منهم ، وعون على ما ينتظر منهم .. ولهذا كان قوله : والله المستعان على ما تصفون .

وسنرى بعد هذا كيف ينتقل المشهد مباشرة الى يوسف ، و يغيب عنا يعقوب وأولاده سنين . لا نسمع لهم ذكرا . ولا يتحدث القرآن خلال هذه السنين عن حزن يعقوب . فنحن — من بعد — مع يوسف فى محنه المتوالية .. حتى نلقى يعقوب بعد سنين قد تكون ثلاثين أو أربعين ، و بعد مكيدة جديدة وغياب ولده الثاني . والأب الشيخ يقول نفس العبارة لأولاده :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ يوسف : ٨٣

ولنذكر ما قال يعقوب من قبل لولده يوسف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

العلم والحكمة فى أول القصة ، والعلم والحكمة في مسارها ، حتى تبلغ غايتها . ومع العلم والحكمة ، سنرى عطايا الله تتوالى ليوسف :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذا مع الصبر الجميل من يعقوب فى موقفه ، ومن يوسف فى محنه المتوالية .

ونجمع هذا كله فى كلمات ثلاث هى محاور أساسية فى القصة : العلم ، والحكمة ، والصبر الجميل . وننتقل معا الى مشهد جديد :

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

وتنقلنا هذه الآيات الى المحنة الثانية فى قصة يوسف بعد محنته الاولى مع اخوته ، الذين استكثروا عليه حب الوالد ، و بيت الوالد ، وسلبوه حتى القميص الذى يقيه الحر والبرد ، وتركوه فى غيابة الجب .

جاءت سيارة . أرسلوا واردهم . أدلى دلوه . كيف جاءوا الى هذا المكان بالذات .. ؟ هل كان على طر يق القوافل .. ؟ أو قر يبا ، ليكون التخلص من يوسف أسرع ، عندما تستولي عليه قافلة .

وتعلق يوسف بالدلو . ولعل صغر جسمه أعان الوارد على رفعه ، وفوجىء بغلام .

وعندما رأى يوسف نفسه خارج الجب ، وأمامه وجه لا يعرفه ، وقلبه معلق بأبيه ، ونظره يتلمس الطر يق الذى جاء منه ، وفكره بين الخوف والرجاء . هل يعيده الوارد الى أبيه .. ؟ هل يسأله من هو .. ؟ ومن أي مكان جاء .. ؟

كانت صيحة الوارد : يا بشرى هذا غلام .

وأسرّوه بضاعة ، والله عليم بما يعملون .

كانت هذه المحنة الثانية بعد محنة اخوته : انه أصبح بضاعة وسلعة . وكيف أسروه لئلا يصدر منه صوت ينبىء عن وجوده .. ؟ وكيف أخفوه طول الطريق . وفى قلبه ينبض الامل الذى أوحاه الله اليه ، لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون .

ها هو يبتعد عن وطنه ، وعن أبيه واخوته ، فمتى ينبىء اخوته .. ؟ ومتى وأين يتحقق وحي الله .

وتقطع السيارة ومعها يوسف الاسير وقد أخفوه لئلا يطلبه أو يراه من يطالب به . وعبرت سيناء وجاءت الارض الخضراء فى وادي النيل .

وجاءت المحنة الثالثة : أن يعرض الاسير للبيع . ولما كان مجهول المصدر، وقد حصلت عليه السيارة من جب ، فهى تريد أن تتخلص منه ، بأي ثمن ، رغم ما كان عليه من جمال أكرمه الله به :

« وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين » .

ثلاث محن متوالية : الجب والاسر و بيعه بيع الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة .

والناس أمام هذه المحن صنوف :

المعدن الكريم تزيده المحن نقاء ، كما يدخل الذهب النار وتنفى عنه الخبث ، وكما تتكون اللآلىء فى أعماق الماء ، ولا تتكون فى

المستنقعات والشواطيء الضحلة .

زادت هذه المحن يوسف ايمانا بربه و بوعده ، وسنرى أن الحظ المتصل بعد هذا ، فى عسره و يسره ، هو الايمان العميق بالله ، مع العلم والحكمة والصبر الجميل .

وهناك أفراد تهون عليهم نفوسهم اذا أهانها غيرهم ، و يفقدون احترام الذات ، و يقابلون اساءات المجتمع باساءات الى الناس والى أنفسهم .

واذا ما فقد الانسان احترامه لنفسه ولمبادئه ، وفقد صلابته فى ملاقاة مشكلات الحياة ، شكلته الحوادث . والهبوط أيسر من الارتفاع . والانحلال أيسر من التماسك .

و يرينا الله تعالى هذين الصنفين فى قوله تعالى :

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

(الاحزاب)

أما الصنف الثاني ففى قوله تعالى :

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا

(الكهف ٢٨)

﴿٢٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

« أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا » آية تلقاها فى قصة يوسف ، وتلقاها فى قصة موسى بصورة أخرى :

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

(القصص)

مرة فى رضيع لا يقدر لنفسه على شيء ، يتقاذفه موج فى اليم ، و يأخذه الى بيت عدو ، وهناك تحميه رحمة الله المتمثلة فى قوله تعالى :

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾

(طه)

ومرة فى غلام نشأ فى بيت النبوة وتحمل المحن الثلاث : من الالقاء فى الجب ، والأسر ، والبيع بثمن بخس . ثم بعدها اكرام الله .

ومرة نلقاها فى محنة الغار فى السيرة النبوية :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(التوبة : ٤٠)

الجب في قصة يوسف. التابوت في قصة موسى. الغار في السيرة النبوية. اليتم أو شبه اليتم في القصص الثلاث، الحرمان من حنان الأبوة. ومن بعد هذا الضيق فرج تخالطه اختبارات من الله تتجلى فيها معادن النبوة الكريمة، والاستقامة على امر الله.

كان نمو يوسف متكاملا: جسميا «بلغ أشده». طعامه وشرابه وكساؤه وسكنه مكفول: «اكرمي مثواه». نفسيا: «وكذلك

مكنا ليوسف في الأرض» علميا واخلاقيا: «ولنعلمه من تأو يل الأحاديث. ومن بعدها «وآتيناه حكما وعلما». مع رد هذا كله الى قدرة الله وتدبيره الغالب «والله غالب على امره».

و يذكرنا هذا بأمر في قصة موسى مع فارق نقرؤه في قول الله تعالى عنه

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ (القصص: ١٤)

و يبدو شيء من العبرة في هذا السياق القرآني اذا ذكرنا الآية التالية

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ

(القصص ١٥)

الفارق في تنشئة يوسف وموسى يكمن في كلمة «استوى» الورادة عن موسى، ولم ترد عن يوسف، وتدل على قوته الجسمية.

فبوكزة واحدة قضى على الذي من عدوه. نعم: ان موسى استغفر ربه فغفر له.

ولكن طبيعة المهمة التي أعد الله لها موسى وقيادة شعبه، ومعاناته معهم، ومع فرعون وقومه، كانت تقتضي لياقة بدنية على درجة عالية من الكفاءة، بينما عامل الحركة في قصة يوسف محدود، والغالب فيها ضبط الحركة والفكر وحسن التصرف بعبارة أخرى. الغالب فيها الحكمة والعلم والصبر الجميل.

والسيرة النبوية تجمع هذا كله: ولهذا كان اعداد الله للمصطفى عليه الصلاة والسلام، اعدادا يضم هذه الجوانب جميعا:

لقد حمل مسئولية الدعوة الى الله، على رأس الاربعين، واتخذ قاعدة الاسلام في المدينة وهو في الثالثة والخمسين. وقاد غزوة تبوك — مع بعد الشقة وشدة الحر — وهو فوق الستين، ومن قبل هذا تحمل أذى الدعوة في مكة حصارا اقتصاديا، وذهابا الى الطائف، وصبرا على أذى ثقيف وقد ردته ردا غير جميل. وهو في كل أمره — صلى الله عليه وسلم — القدوة في الاخلاق والعبادة

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

(الاحزاب: ٢١)

ولنا أن نرجع الى اعداد الله انبياءه واصطناعهم ليقوموا

بمسئولياتهم، بما يتلاءم مع مجتمعاتهم:
عن نوح عليه السلام يقول:

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا

(هود ٣٧)

وعن داود عليه السلام يقول:

وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

(سبأ: ١٠ ـــ ١١)

ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأرسلنا له عين القطر. الى قوله تعالى

ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

(سورة سبأ)

فالعلم والصناعة والتخصص والابداع الملائم، أساس في القرآن الكريم وعلى هديه يمكن أن تتحدد مسئوليات اعداد الشباب في الاسلام بعامة، وفي كل مجتمع وفق ظروفه الخاصة.

ماذا يريد المجتمع منهم؟ وما حاجاته في عصر التخصص الذي نعيشه.

يحتاج الشباب الى تكوين متوازن يضم أمورا أساسية:

أولا: التكوين الجسمي السليم، وأنت ترى هذه القاعدة مطردة في الانبياء جميعا واذا تغيرت فالى حين، ولاختبار من الله تعالى، كما في قصة أيوب:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

(الانبياء: ٨٣ — ٨٤)

والمحافظة على سلامة الجسم عبادة، لانها حفظ نعمة الله، ولها جانبان أساسيان: وقائي وعلاجي:

فليمارس أبناؤنا الرياضة، وليعتنوا باجسامهم، وليبتعدوا عن كل مايسيء الى صحتهم من عادات في الطعام والشراب والصحبة. ويحتاج هذا الى ارادة قوية.. الانتصار في تجاربها مدعاة الى مزيد من احترام الانسان نفسه، وحسن صلته بربه وأهله واخوانه.

ثانيا: التكوين النفسي والمزاجي: وخير اساليبه حسن دراسة السيرة النبوية، وسير الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول الله تعالى:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

(الاحزاب: ٢١)

و يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سألت ربي عن اختلاف أصحابي من بعدي فأوحي اليَّ يا محمد ان أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء، بعضها أقوى من بعض. ولكل نور. فمن أخذ بشيء مما هم عليه على اختلافهم فهو عندي على هدى(١).

وليعلم أبناؤنا أن التدريب النفسي والمزاجي أمر مستمر، تماما كالتعليم والتربية. وانه يحتاج من الفرد الى مراجعة ذاتية، وحسن صحبه، ومن افضل مايعين عليه اختيار الاصدقاء الصالحين، ومراجعة الانسان تصرفاته على هدى الكتاب والسنة... وصدق الله تعالى اذ يقول مخاطبا خاتم المرسلين.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

(القلم: ٤)

ثالثا: وهو محتاج في تكوينه الى قاعدة علمية، تتغير مكوناتها من بيئة

---

(١) جامع الأصول لابن الاثير. ٩: ٤٠٩ حديث رقم ٦٣٥٩

الـى بيئة ومن زمان الى زمان. ولكن فيها مكونان أساسيان: التعامل مـع الحـروف وهذه هي اللغة، والتعامل مع الأرقام وهذه هي المجموعة الر ياضيـة. تـضاف اليها الآن ثلاث مجموعات: العلوم الاجتماعية التي تمثل علاقة الانسان بالانسان، والعلوم البحتة التي تمثل علاقة الانسـان بـالمـواد والبـيـئـة الـطبيعية، ثم دخلت مجموعة جديدة هي التـعـامـل مـع الاجـهـزة الحـاسبة والالكترونيات، وقد أصبحت لغة الـعصر، وهـي آخـذة في الانتشار. وأصبح من مقاييس تقدم المجتمع، حساب عدد مافيه من آلات حاسبة وحجمها وما تقوم به من خدمات في التخز ين والعمليات والاسترجاع.

و بعد هذه القاعدة الخماسية، تأتي التخصصات التي يتجه نحوها الشباب وفق قدراتهم وميولهم.

ولـقـد أصبـح الـتـعليم الآن مستمرا، وليس هناك من سن يقف عنده التعلم.

وهـنـاك الـدائرة الواسعة التي تكون نظرة الانسان الى الوجود والكون والمجـتمع. وهناك النظرة التخصصية التي تمثل مايستطيع الشباب أن يبدع فيه، ويخدم مجتمعه عن طر يقه.

وقد يسأل سائل: وأين الدين في هذا؟

والاجـابـة: ان الـدين ـــ كما يعلمنا الله ـــ فطرة الله، وهو صبغة الله.

وهـو الـعـقيدة والاساس في هذا كله، والروح السار ية فيه.. له قـواعـده الـتـي نتعلمها، واخلاقياته التي نتحقق بها، ومعاملاته التي

نتبعها، وهو كائن في اصول التعليم والتكوين، ثم هو معه بعد هذا في التخصص العلمي لمن شاء.

وكما انك لا تستطيع أن تجد جزءا من الشجرة، وقد خلا من العصارة الحية، لا تجد قطاعا من الحياة وقد خلا من الدين.

انه الروح الدافعة الى العمل، والمعيار الاخلاقي الذي يحدد مستواه، والحافظ من الانحراف، انه ــ عند الشدة ــ برهان الله الذي رآه يوسف. هو السكينة التي نزلت على الرسول وصاحبه في الغار، هو الرباط على قلب ام موسى وفتية الكهف. هو تسبيح يونس في بطن الحوت. هو فرح المؤمنين بنصر الله. هو طمأنينة النفس المؤمنة في عودتها الى الله هو نورها يوم اللقاء.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾

(الزمر)

أود في هذا الحديث أن أطيل الوقوف عند تكوين يوسف واعداده للنبوة، هذا الاعداد المتمثل في قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

فما من نعمة من نعم هذا التكوين الالهي، الا وكان لها أثرها فيما استقبل يوسف من محن أو مسئوليات: في مواقفه عندما كان في القصر، وفي السجن، وعلى خزائن الارض. في هذا نلمس آثار النضج الخَلقي والخُلُقي، والحكم والعلم، والتمكين في الارض، وتأويل الاحاديث. ونحس احسان الافادة من كل هذه النعم، بدليل قول الله تعالى في ختام الآية: «وكذلك نجزي المحسنين».

وهنا تبدو ثلاثة أركان:

أولا ــ عناصر التكوين
ثانيا ــ تقبل الفرد لهذه العناصر واستيعابه اياها.
ثالثا ــ حسن الافادة منها فيما يستقبل من أيام وأحداث.

ولنحاول تقريب هذه الثلاثة بمثال لاعداد طالب العلم، أو صاحب المهنة للحياة.

هناك أولا: المنهج الدراسي من حيث المادة والعرض، والمعينات السمعية والبصرية، والجو المدرسي، من حيث الادارة والتعامل.

وهناك ثانيا: الطالب هو الذي يتلقى هذه المادة و يتشرب الجو الذي حوله. و يأتي هذا بتوجيه وتفاعل بينه و بين المادة العلمية، بحيث تنمو فيه القدرات على متابعة التعليم: أي يتعلم كيف يتعلم.

وهناك ثالثا: قدرة الطالب على الافادة مما تعلم، تمهيدا لقيامه بدور ابداعي في الحياة، عندما يقابل مواقفها المتجددة.

والطالب أو المتعلم يمر في هذه المراحل: (١) التعلم والتمثيل أو الاستيعاب، و(٢) القدرة على التطبيق، ثم (٣) القدرة على الابداع.

وهذه المراحل، حين تنظر اليها في شمولها، توضح لنا مسئوليات اعداد الشباب الاسلامي الداخلية والخارجية، المحلية والعربية والاسلامية والعالمية. و ينبغي ان تنتظمها وحدة تخطيطية كبيرة، اذا ما أردنا أن نعبر حواجز التخلف، ونخترق متاهات الصراعات الداخلية الى آفاق المستقبل.

هذه الوحدة التخطيطية الكبيرة، تتحدد فيها احتياجات العالم

الاسلامي الحقيقية على المدى القريب والمنظور أولا.

ولنسأل: ماهي التخصصات التي لا يستغنى عنها المجتمع فى تقدمه؟ هل هي متوفرة فى جامعاتنا؟ هل نعد لها برامجنا الدراسية؟ هل نوفر لابنائنا الجو العلمى، والنفسى والعقائدي، الذي يجعل من التحصيل العلمي والتدريب العملي، واقبال الشباب على العلم والسعادة بالجهد فيه.. يجعل من هذا كله صيغة لحياة الجيل الجديد، الذي يحس — بصدق — بابعاد التحديات الحضارية التي يلقاها وأولها اخطار الصهيونية التي انتزعت جزءا عزيزا وغاليا من أرضه، وتمد أذرعتها الى ما وراء ما استولت عليه؟ هل يحس باخطار ما تبذله بعض الدول الكبرى — سرا أو جهرا — بطريق مباشر أو غير مباشر، في استنزاف ثرواته، وقواته في حروب داخلية وصراعات مشبوهة، وحياة مترفة في بعض الاقطار، ودون حد الجوع في اقطار أخرى؟ هل يحس أن عليه أن يسابق الزمن: كما صنعت اليابان وكوريا وسنغافورة — وكلها من دول شرق وجنوب آسيا — حتى استطاعت في بعض الصناعات والانتاج، أن تزاحم الغرب في عقر داره، وفي صناعات كان يظنها حكرا على العقل الغربي والحضارة الغربية؟

نحن لسنا في حاجة فقط الى أن نقتبس علميا وتقنيا من الغرب، فلو ظل الاقتباس غذاءنا العقلي، لاستمر التخلف الى أبد الآبدين.

ان اليابان لم تقف عند حدود الاقتباس، ولكنها تخطته مسرعة الى الابداع والابتكار.

وان العلاقة الحميمة بين الفرد الياباني والمصنع، بل الفرد والآلة، التي يعمل معها و يتعامل معها، تكاد أن تكون اخاء وصداقة. نعم صداقة حميمة، هولا يستطيع أن يدعها بعد انتهاء العمل الا نظيفة مصانة، في أفضل صورة.. كأنما يودع صديقا عز يزا الى لقاء قر يب.

وليس هذا جديدا في الانسانية.. وانظر الى العلاقة الحميمة في تراثنا العربي بين الفارس وفرسه، و بين الفارس ودرعه وسيفه.
كان للفرس اسم، وللدرع اسم، وللسيف اسم. عد الى تراثنا العربي واقرأ فيه حب العربي لارضه وحبه لاهله ووطنه. ومن هذا الحب الكبير كان يتفجر الدفاع عن الارض والعرض والاهل والجيرة.

فالقضية اذن لا تقتصر على أن تعرف الوطن ومافيه.. ليست مجرد دراسة وتحصيل، ولكنها حب حميم تتحول به المعرفة الى سلوك وابداع يرمي دائما الى رفعة الوطن والعقيدة والاهل..

ومن هذا الحاضر الذي نعيشه في الشرق والغرب، ومن التراث العربي الاصيل، نعود الى قصة يوسف وتر بية الله له، وسنرى في المحن التي خاضها يوسف، كيف أفاد من كل هذا التكوين: في استقامته على أمر الله عندما راودته امرأة العز يز، ووصفه الله تعالى فقال **«انه من عبادنا المخلصين»** في حفظه مال سيده وعرضه في غيابه وحضوره، وامتناعه عن أي شيء يشين هذا الوفاء.. الوفاء لله خالقه، والوفاء لرب البيت الذي أكرم مثواه، والذي تمثل في قول الله تعالى على لسان يوسف «قال: معاذ الله انه ربي أحسن

مثواي انه لا يفلح الظالمون»

في صبره في السجن على مالقى من العنت، وفي قدرته على تأويل ما رأى الفتيان صاحبا السجن. وكيف ان تعبير رؤيا الساقي، كان الباب الذي ولج منه الى تعبير رؤيا الملك، ثم الى الحياة العريضة.

كانت منه الدقة والشفافية في تعبير رؤيا الملك. ومع الالهام الالهي ايضا ادراك للظروف الاقتصادية التي يمكن أن تنتج من تغيرات فيضان النيل. وأن العاقل لا يقف امام هذه التغيرات موقفا سلبيا، بأن يتقبلها كانها قدر لا مرد له. وانما — كما يقول الامام ابن القيم — يغالب الاقدار بالاقدار. فالعقل قدر، والتخطيط قدر، وارتفاع الفيضان وانخفاضه قدر. والقائد الناجح هو الذي يستعين باقدار التخطيط وارتفاع الفيضان، على اقدار القحط والجوع، و يدخر من هذه لتلك.

وهذا النهج القرآني الذي جاء في قصة يوسف، هو الذي استند اليه المؤرخ الاسلامي تقي الدين المقريزي عند دراسته لمشكلات القحط ونقص الغلات في مصر نتيجة لانخفاض الفيضان في كتابه: اغاثة الامة كشف الغمة «وكانت حجته مبنية على التخطيط الطويل كما صنع سيدنا يوسف، دون القاء العبء على القدر، تهربا من مسئولية التنظيم والتخطيط الطويل.

ومع كل النجاح الذي لقيه يوسف في مشروع استمر معه خمسة عشر عاما. نرى فيه حسن الترفق مع الناس، ومع اهله، ومع حاشية القصر، وصواحب امرأة العزيز.. ولا نقرأ في قصة يوسف أنه آثر

الانتقام من أحد، أو غلب الاساءة على الاحسان. وكان دائما يحس الافتقار الى الله، والرجوع والانابة اليه. وآخر دعواه مناجيا ربه: «توفني مسلما والحقني بالصالحين».

نضيف الى هذا كله: أن العلم في الاسلام وطلبه عباده، وأنه أول أمر جاءنا من الله تبارك وتعالى في أول نزول القرآن:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ (العلق)

وانه الدعاء الذى علمه الله نبيه فى القرآن:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤ ﴾ (طه)

وانه فضل الله على رسوله:

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣ ﴾ (النساء)

وكلف به أمهات المؤمنين ليكن معلمات معاونات للمصطفى عليه الصلاة والسلام فى تعليم هذه الامة فقال تعالى:

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤ ﴾ (الاحزاب)

و يرغب الرسول صلى الله عليه وسلم أمته فى طلب العلم فيقول : « من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا من طرق الجنة . وان الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم . وان العالم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الارض ، والحيتان فى جوف الماء . وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب . وان العلماء ورثة الانبياء . وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم . فمن أخذه أخذ بحظ وافر» . (رواه أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء)(١) .

---

(١) جامع الأصول لابن الاثير ٩ : ٦ حديث رقم ٥٨١٦

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ

آثرت أن أذكر آيات المشهدين بتمامها لنفرغ بعد هذا الى تحليلها . وقد كثرت فيها أقوال العلماء والمفسرين قديما وحديثا . والمشهدان هما : المراودة ، والمحاسبة أو التحقيق .

ولنبدأ بمشهد المراودة : وهى لغة المطالبة برفق ولين . ومنه المرود ما يوضع به الكحل فى جفن العين . والرائد الذى يطلب المرعى . وفى الحديث الشريف : ان الرائد لا يكذب أهله .

يبدأ المشهد باثنين ، و ينتقل فى المحاسبة الى أربعة شخوص أساسية ، باضافة الزوج ، وشاهد من أهل الزوجة .

ولنذكر ما جاء فى القرآن من أوصاف كل من هؤلاء ، فى هذه الآيات ، نستأنس بما جاء عنهم بعدها .

أما عن امرأة العزيز فقال الله فيها : **« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب ، وقالت : هيت لك » .**

فالمراودة منها . وفى بيتها ، وعن فتاها الذى كان منها بمنزلة الابن . وهى التى أحكمت اغلاق الابواب ، ثم دعته الى نفسها قائلة : هيت لك .

ولما قال : **« معاذ الله انه ربي أحسن مثواي ، انه لا يفلح الظالمون »** ، وذكرها بمكانها ، ومكان زوجها منه ، وايمانه بالله تعالى ، همت به . وسنعود الى تفسيرات « هم بها لولا أن رأى برهان ربه » .

ثم لما استبقا الباب « قدت قميصه من دبر» .

ولما ألفيا سيدها لدى الباب ، بادرت بادانة يوسف ، ولم تحاول أن تحميه وهو البرىء . فهى كانت محبة لنفسها ولأهوائها ، لا ليوسف ولا للزوج ، وتستحل الخديعة والكذب ، وهى سريعة فى حبك التهمة ، والصاقها بغيرها ، وستر الكذب بطلب العقوبة الشديدة .

ولما شهد شاهد من أهلها كان قوله لها : « **واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين** » .

ولقد كان منها بعد سنين شهادة صريحة ببراءةيوسف :

قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

أما عن يوسف : فقد فوجىء بهذا التدبير كله . وكان قوله فى هذا الموقف ــ كما وضحه القرآن ــ كلمتان :

الاولى : « معاذ الله ، انه ربي أحسن مثواي . انه لا يفلح الظالمون » وهذا فى مشهد المراودة .

الثانية : « هى راودتني عن نفسي » وهذا فى مشهد المحاسبة أو التحقيق .

هذا عن القول .

أما عن الحركة فيسجل القرآن ــ صراحة ــ تحركا واحدا فى قوله تعالى : « واستبقا الباب » .

تبقى بعد هذا حركة النفس المتمثلة فى قول الله : « وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » وهذه نفهمها فى نور قول الله تعالى : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، امن من عبادنا المخلصين » .

يوسف بنص القرآن الكريم : من عباد الله المخلصين ومع هذه الآية ، نذكر آيتين :

توعد ابليس بني آدم بالاغواء .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

(ص : ٨٢ ــ ٨٣)

وقول الله تعالى .

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

(الحجر: ٤٢)

نضيف الى هذا شهادات نسوة المدينة وشهادة امرأة العزيز،

والشاهد من أهلها، واقتناع العزيز والملك بطهارة موقفه، حتى استخلصه الملك لنفسه.

ومن كلمة «المخلصين» ننتقل الى «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء» ــ فلو كان الأمر يتعلق بالمراودة وحدها، لكان قول الله: كذلك لنصرف عنه «الفحشاء.» يكفي. ولكن هنا كلمة «السوء» ومعطوف عليها كلمة «الفحشاء».

فالله تبارك وتعالى، صرف عنه الامرين معا. وأراه البرهان الذي يعينه على التصرف بحكمة.

هو شاب في قوته ونضجه وكمال جسمه. وليس فيه ما يقدح اكتماله. يريد أن ينصرف عن هذا الموقف دون فاحشة ولا أذى. وحاشاه أن يستجيب لاغرائها، وكان قوله **«معاذ الله انه ربي أحسن مثواي، انه لا يفلح الظالمون»**. وهو لا يريد أن يمكنها من جره الى قضية جانبية، اذا دفعها دفعا عنيفا بعيدا عنه فتدعى أنه آذاها، عندما أراد بها السوء فرفضت.

وكان عليه أن يتصرف بمنتهى العلم والحكمة، دون أن تتمكن منه، ولا يدفعها أو يؤذيها، فتثورثائرتها ولها في القصر سلطانها. وبهذا يبدو الاقرب الى الموقف فى قوله تعالى **«وهم بها لولا أن رأى برهان ربه»**. أنه دافعها في تعقل، ثم اندفع الى الباب فاستبقاه، وفي عنف قدت قميصه من دبر. والقد القطع الطولي. والقط القطع العرضي. ولا يكون القطع الطولي الا اذا كانت الحركة منه مندفعة الى الامام، ولم تلحق هي بالقميص، الا من خلف.

و يفاجأ يوسف وامرأة العزيز بسيدها لدى الباب. ولم يتكلم يوسف. وتكلمت هي، تدافع عن نفسها ـــ وهي الآثمة ـــ وتتهم يوسف ـ وهو البريء ـ وتحدد العقوبة «ماجزاء من أراد بأهلك سوءا، الا أن يسجن أو عذاب أليم»؟ وجاء في الآية هنا لفظ «سوءا.» بينما يسبقها قول الله تعالى **«كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين»** ولكن هذا التعميم في كلمة السوء حسمه يوسف بكلمة قاطعة: «هي راودتني عن نفسي» . فالموقف لم يعد يحتمل الا هذا الوضوح .

و يدع يوسف الادلة تتكلم وحدها .

وشهد شاهد من أهلها: فهو لصيق بها، حريص على براءتها، وبذا وضع القاعدة، ثم أخذ في تطبيقها. «ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين» ـــ لأنه يكون المهاجم وهي المدافعة ـــ وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ـــ لأنه سيكون الهارب منها، وهي التي تلاحقه.

﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

لماذا جعل الخطاب لجماعة النسوة؟ ولماذا قال من كيدكن.؟ هل سبق هذا الكيد كيد آخر؟ هل هو حلقة من سلاسل مكائد في بيت العزيز؟ ثم هذا الوصف.. ان كيدكن عظيم؟ هل حضر المشهد بعض أهلها أو صواحبها؟ قول الشاهد يبين أن هذا الحادث كان

« اسلوب حياة» في القصر، ولم يكن أمرا عابرا. وقد يوحى هذا الينا، بأن القصر لم يكن على كلمة سواء في هذا الامر: فيه من يقبل على السوء. وفيه العفيف الذي يبتعد عنه ويحذره. وفيه الراغب في المحافظة على شكليات الحياة ومظهرها دون فضائح. و يبدو هذا في قول الله تعالى على لسان الشاهد أو الزوج.

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ

هكذا. «يوسف أعرض عن هذا». لا تذكر هذا الامر، ولا تتحدث به، محافظة على الشكل الظاهرى. أما امرأة العزيز فيكفي — وقد أدانها الشاهد — وهو من أهلها وأقر بأنها من الخاطئين أن تستغفر لذنبها.

وهنا لا نرى استغفارا من يوسف، ولو أذنب — أي ذنب — مهما صغر، لأعقبه استغفار، ولكنه كان كما وصفه ربه في هذا الموقف « انه من عبادنا المخلصين».

جولة في كتب التفسير

في هذا الحديث سنقوم بجولة في كتب التفسير نسأل علماءنا عن بعض ماقالوا في أمر المراودة والهم و براءة يوسف و برهان الله الذي رآه، وما نصحوا به في قضايا الصداقة والشباب.

ولنبدأ مع شيخ الاسلام ابن تيمية وقد جاء ما ننقله عنه في الجزء الخامس عشر من مجموع فتاو يه. وفي القسم المخصص لسورة يوسف.

وهو لا يشمل السورة جميعا، وانما يعالج بعض قضاياها.

وننتقل بعده الى مختارات من تحليل الامام الفخر الرازي. وبهذا نجمع بين المأثور والمعقول.

ومن هذه النظرات في التراث ننتقل الى العلم الحديث، وله أضواؤه التى نعرضها على شبابنا.

يقول الامام ابن تيمية:

يوسف عليه الصلاة والسلام كان شابا عزبا أسيرا.. حيث لم يكن هناك أقارب أو أصدقاء فيستحي منهم اذا فعل فاحشة. وكان أيضا لا يخاف مخلوقا، فحكم النفس الامارة بالسوء — لو كانت نفسه كذلك — أن يكون هو المتعرض لها، بل يكون هو المتحيل عليها، كما جرت به عادة كثير ممن له غرض في نساء الأكابر، فكيف اذا كانت الداعية سيدته الحاكمة عليه، التي يخاف الضرر بمخالفتها؟

ثم ان زوجها الذي عادته أن يزجر المرأة، لم يعاقبها، بل أمر يوسف بالاعراض. ثم انها استعانت بالنسوة وحبسته..

فليتدبر اللبيب هذه الدواعي، التي دعت يوسف الى مادعته، وانه مع توفرها وقوتها، ليس له عن ذلك صارف اذا فعل ذلك، ولا من ينجيه من المخلوقين ــ لتبين له أن الذي ابتلى به يوسف كان من أعظم الأمور وان تقواه وصبره عن المعصية، حتى لا يفعلها، مع ظلم الظالمين له، حتى لا يجيبهم، كان من أعظم الحسنات وأكبر الطاعات. وان نفس يوسف عليه الصلاة والسلام، كانت من أزكى الأنفس.. والهم الذي وقع كان زيادة في زكاء نفسه وتقواها، وبحصوله، مع تركه لله، لتثبت له به حسنة من أعظم الحسنات، الى تزكى نفسه.. انتهى هذا الاقتباس من الأمام ابن تيمية (١٥ : ١٣٨ ــ ١٣٩).

ونذكر منه آخر، لاستمرار الصداقة اذا قامت على البر والتقوى، وتحولها الى قطيعة و بغض، اذا قامت على معصية.

وهو ميزان دقيق للعلاقة بين الشباب: وقد ذكره تعقيبا على عفة يوسف «الناس اذا تعاونوا على الاثم والعدوان، أبغض بعضهم بعضا، وان كانوا فعلوه بتراضيهم، قال طاووس: ما اجتمع رجلان على غير ذات الله الا تفرقا عن تقال. (أي تهاجر).

وقال الخليل عليه السلام

إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم

بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

(العنكبوت : ٢٥)

وهؤلاء لا يكفر بعضهم ببعض، و يلعن بعضهم بعضا، لمجرد كونه عصى الله، بل لما حصل له بمشاركته ومعاونته من الضرر. وقال تعالى عن أهل الجنة التي أصبحت كالصريم

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾

(القلم : ٣٠)

أي يلوم بعضهم بعضا. وقال

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

(الزخرف : ٦٧)

فالمخالفة اذا كانت على غير مصلحة الاثنين كانت عاقبتها عداوة وانما تكون على مصلحتها، اذا كانت في ذات الله. فكل منها — وان بذل للآخر — اعانه على مايطلبه، واستعان به باذنه فيما يطلبه. فهذا التراضي لا اعتبار به، بل يعود تباغضا وتعاديا وتلاعنا، وكل منهما يقول للآخر: لولا أنت ما فعلت أنا وحدي هذا. فهلا كى كان مني ومنك.

ومن هذا التعميم، انتقل ابن تيمية الى تخصيص في قصة يوسف:

لو قال يوسف اني أخاف الله أن يعاقبني، ونحو ذلك، لقالت (أي امرأة العزيز): أنت انما تترك غرضي لغرضك في النجاة. وأنا سيدتك، فينبغي أن تقدم غرضي على غرضك. فلما قال: «انه ربي أحسن مثواي» علل بحق سيده الذي يجب عليه وعليها رعاية حقه (١٥: ١٢٨ ــ ١٣٠).

و يعقب الامام ابن تيمية على قول يوسف «رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه، والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين» بقوله: وفيه عبرتان.

احداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه، أن يثبت القلب على دينه، و يصرفه الى طاعته.

في هذا توكل على الله واستعانة به، ان يثبت القلب على الايمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء، والاذى الحاصل اذا ثبت على الايمان والطاعة.

وهذا كقول الله تعالى:

۞ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ

يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

(النحل: ٤١ ــ ٤٢).

ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الانبياء والصالحين، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة.. وكان ماحصل له من الأذى قد انقلب نعيما وسرورا. كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب، ينقلب حزنا وثبورا.

ومن حديث ابن تيمية ننتقل الى جانب تطبيقي: ان الشباب الصالح الذي يرى من أصدقائه، أو من أحدهم، انحرافا، و ينصحه ثم ينصحه، ولا يرعوى هذا الصديق، فانصرف عنه الشباب الصالح، أو انصرف عن هذه المجموعة من الاصدقاء، فان هذا الانصراف يترك في نفوسهم أثرا لا يضيع، واذا ما تكررت أمامهم النذر في حياتهم، فلن يذكروا هذا الصديق الصالح الا بكل خير. واذا تابوا عن انحرافهم، سيعودون الى الصديق الصالح، و يعود اليهم، بقلوب نقية طهرتها التقوى، ووجوه مشرقة من أثر السجود لله تعالى، وكلمات عفة تأدبت بأدب القرآن الكريم.

وجوب عصمة الانبياء كثيرة. والخيانة في معرض الامانة من منكرات الذنوب. وايضا مقابلة الاحسان العظيم بالاساءة الموجبة للعار الشديد ايضا من منكرات الذنوب (١٧ ــ ١١٥) انتهى قول الرازي.

و يوسف عليه السلام، وقد تربى في بيت العزيز، كريم

المشوى .. ومن قبل هذا تربى في حجر نبي واستوعب آدابه ، كان صورة للكمال الخلقي في كل مراحل حياته .. وكل من حوله شهد له بالبراءة ان عاجلا أو آجلا .

وظل عليه الصلاة والسلام عبر القرون ــ وما دام القرآن يتلى ــ صورة كريمة لنبي كريم وشاب طاهر عفيف .

ما هي اقوى الغرائز .. ؟

كان الحديث عن عفة يوسف عليه السلام ، و يوسف نبي كريم .. وحين نقصر الامثلة على الانبياء ، قد يقول لك شاب : أين أنا من هؤلاء ؟ لقد اصطفاهم الله ، واصطنعهم على عينه ، وجعلهم من عباده المخلصين . أما نحن ، فبشر من البشر ، يصدق علينا الخطأ والصواب ، والذنب والتوبة والمغفرة . ولا تستطيع اجنحتنا الصغيرة أن تحلق في هذه الآفاق العالية . والى أي مدى نستطيع أن نقاوم اغراءات الحياة حولنا ، والفتنة تحاصرنا في الحياة : في الطريق والمجلة ، والاذاعة المرئية والسينما . ثم جاء الفيديو لينقل المشكلات الى كل بيت ، كأنه اذاعة خاصة دون رقيب .. وكم حملت ولا تزال تحمل الى البيوت من افلام هي متفجرات ومخدرات اخلاقية .

أكثر من شاب حدثني في ذلك بعد محاضرة عامة ، أو بعد صلاة الجمعة ، أو في رسالة .

وسنحاول أن ندرس جوانب من هذا الامر دراسة علمية . بل أقول : معملية ، نذكر فيها نماذج من التجارب التي قد تعيننا على أن نضع هذه الأمور في مكانها العلمي العملي الصحيح .

ونبدأ بشهادة سيجمون فرو يد نفسه ، وقد تقدم به السن ، وأخذ يقيم انتاجه و بخاصة ما يتعلق بكتاباته عن الجنس .

واذا كان اسم دارو ين قد ارتبط بالتطور ، واسم كارل ماركس قد ارتبط بالتفسير المادي للتاريخ ، فان اسم فرو يد ارتبط بغريزة

الجنس، بوصفها — عنده — أقوى الغرائز وأعمقها وأوسعها أثرا.

ولنذكر أن كارل ماركس و يونج من ألمع الاسماء في التحليل النفسي ومجموعة مؤلفاته كما نشرتها جامعة برنستون عشرون مجلدا ضخما. وكانت ولادته عام ١٨٧٥ ووفاته عام ١٩٦١. و يذكر يونج كيف نقد فرو يد — فيما بينهما — قاعدة البناء الضخم الذي شاده عن غريزة الجنس، وكيف ملأ الدنيا وشغل الناس، وأنه وقد تقدم به السن، وعرفه الناس والمجالات العلمية بهذه الصورة، لا يستطيع أن يتراجع عما كتبه، فهو في مرحلة يصبح فيها العالم متجمدا على ما كتب.. ثم يقول: انني كالذي بنى سدا يحجز به طين النهر، فاذا كسرت السد، انهار الطين على رأسي.

هذه ناحية من جمود بعض العلماء على ماكتبوا من بعد ما تبين لهم فيه وجه آخر.

وأذكر لقاء مع صديق، كان بحكم الصلة العائلية قريبا جدا من عملاق من عمالقة أبناء العرب — وكانت له آراء في شبابه شغل بها الناس — وأثار من حوله دو يا كبيرا... ولما تقدم به السن، كان يرجع في جلساته الخاصة ومع خلصائه عن كثيرمما كتب في صدر شبابه، وشغل به الناس لم يجد في نفسه من القوة وقد قاربت شمس حياته المغيب، أن يرجع في كتاب أخيرعما قال في مطلع شبابه.

بينما كانت من كاتب — كالاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني — الجرأة، على أن يرجع صراحة و بتحديد عن بعض ماكتب في شبابه، وتمنى أن يمحى من صحيفة انتاجه.

أقول هذا لئلا يظن شبابنا فيما كتب فرو يد عن غريزة الجنس

صوابا تمسك به، حتى الذي دق لها كل هذه الطبول، وأثار لها كل هذا المهرجان العلمي.

هذه ناحية..

وناحية أخرى.. أن نظرية الغرائز نفسها، قد تخطتها الدراسات النفسية التجريبية اللاحقة، ولا تزال النفس الانسانية منجما فياضا بالمعرفة وصدق الله العظيم ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

(فصلت،)

وهي منجم مفتوح للتجارب العلمية، والاستبيانات. وظهرت علوم في هندسة المجتمع ترمي الى بناء السلوك الانساني وتوجيهه على اسس علمية. ولا يتوفر لك ذلك الا بمسح علمي وتجارب.. بعض هذه التجارب يجرونها على الحيوانات، و بعضها على الانسان. ولكل منها ضوابطها العلمية، التي يراد منها ربط الظاهرة بأسبابها وملابساتها وآثارها.

ذلك لان الظاهرات اذا لم ترتبط بأسباب وملابسات ونتائج، كان مسار التاريخ فوضى لا رابط له. ولن تكون هناك أي فائدة من دراسة التاريخ الانساني. بعبارة أخرى: يكون التاريخ سلسلة — أو تدفقا — من الاحداث المفككة التي لا تنظمها سنن ولا وحدة. ان التفرقة بين السلوك الحكيم في التاريخ، والسلوك غير الحكيم،

يتضمن الاعتراف بالعلاقات السببية في السلوك الانساني. واذا كان لنا أن نقرر مبادىء وقواعد تستهدي بها الدول والافراد، فلا بد أن نسلم بقواعد وقوانين تقرر علاقات معينة بين الاسباب والمسببات.

واذا كان لنا أن نفترض فروضا أو نقترح نظريات، فان المعيار التطبيقي والعملي، حكم على جدواها وصحتها.

ولنا مصدران أساسيان للمعرفة: وحي الله وخبرة الانسان في الانفس والآفاق.

وقول الله تعالى **«سنريهم آياتنا»** يدل على أن المستقبل دائما مفتوح لمزيد من البحث الموصل أو المقرب من الحق. يلي هذا في الآية «حتى يتبين لهم أنه الحق».

ولنذكر نموذجا — مجرد نموذج — لتجربة معملية على الاهمية النسبية للغرائز أو للحاجات الطبيعية في عالم الحيوان، باعتباره يتحرك بتلقائية أوسع من عالم الانسان، و يستجيب مباشرة لهذه الحاجات أو الدوافع.

وأود أن أذكر بين يدي هذه التجربة قول الله تعالى:

۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ (البقرة)

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

والتجربة عن الفئران: وجهازها كما يلي:

صندوق يوضع فيه الفأر الذي ستجري عليه التجربة. وعلى مسافة منه يوضع الهدف في صندوق آخر. وبين الصندوقين ممر أرضيته معدنية يمكن ايصال تيار كهربائي اليها، ولكل من الصندوقين بابان، احدهما الى الخارج والثاني يفتح على الممر.

وتبدأ التجربة بأن يوضع الفأر في الصندوق. ويوضع الهدف في الصندوق الثاني ثم يفتح بابا الممر، ليستطيع الفأر الانطلاق من صندوقه عبر الممر الى صندوق الهدف. وعند فتح البابين توصل قاعدة الممر المعدنية بتيار كهربائي ثم تحسب عدد محاولات الفأر للوصول الى هدفه.. هل عنده اصرار؟ وما مداه محسوبا بالمسافة والمحاولات، ذلك لأن التيار مع استمراره، قد يدعو الفأر الى النكوص عن الهدف راضيا من الغنيمة بالاياب.

ولقد جربوا مع الفئران اربعة أهداف :

ـــ انثى لقياس مدى اندفاعه نحو الجنس الآخر .
ـــ أجاعوا الفأر مدة ثم وضعوا الطعام في صندوق الهدف .
ـــ أظمأوا الفأر مدة ثم وضعوا الماء في الصندوق الآخر .
ـــ دون انثى ولا جوع ولا ظمأ ، وضعوا صغارا ولدتها أمها في صندوق الهدف ، ووضعوا الأم في الصندوق الأول وأجروا التجارب .

فماذا كانت النتيجة ؟

فكانت الامومة أقوى الدوافع و يليها الظمأ والجوع و يأتي الجنس في آخر هذه القائمة الرباعية .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ﴿٣٧﴾ (ق)

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

(يوسف آية)

وتصور هذه الآيات المحنة الثانية في المرحلة الثانية في حياة سيدنا يوسف .

في المرحلة الأولى ، صحبناه في الجب والأسر والبيع بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين .

هو يدرك جانبا من مكانته عند ربه ، بعد رؤياه ، وتأويل أبيه لمحتواها ، وما أوحى الله اليه به في الجب ، ثم يرى نفسه بين أيدي السيارة أسيرا محجوبا «وأسروه بضاعة» سلعة تباع بثمن بخس .

ويلي هذا فترة تكوين واستقرار ، يستعد فيها لما يستقبل من أحداث . مرت المحنة الاولى عندما راودته امرأة العزيز وظهرت براءته .. كان من المنتظر أن يبعده الزوج عن حياتها ، وهو قادر على أن يغير موقع عمله . فكان بقاؤه ـــ بعد ذلك في القصر صورة من ضعف الزوج ، وسيطرة الزوجة وقدرتها على الشر ، وهي من الخاطئين .

وفي هذا اشارة قرآنية الى حالة التفسخ الاخلاقي في القصر ، وما كان يعاني منه يوسف ، وأي انسان شريف النفس .

وتسري أخبار المراودة الى المدينة ، يتحدث بها النسوة ، وتصف الشغف والحب في قلب امرأة العزيز . وتصدر عليها الأحكام من النسوة «انا لنراها في ضلال مبين» .

ولم يكن في هذا مايخالف الحقيقة ، بل ان ماصرحت به امرأة العزيز بعد هذا كان أكبر . يصل بها السوء الى تهديد الطاهر العفيف بالسجن والصغار والاذلال ، وفتح أبواب الحياة الهادئة امامه في القصر اذا استجاب للغواية والاغواء ..

ولـم يـكـن هـذا سـرا ، ولـكـن في مـواجـهـة يستعلن فيها الفساد والافساد . وجاءها ما تقول نسوة المدينة ، وتدعوهن في جلسة رخية .

«واعتدت لهم متكأ» و بينهن أطباق الفاكهة . وفي يد كل منهن سكين .

مسرحية لا تختلف في الاعداد والترتيب عن «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب ، وقالت هيت لك» .

المسرحية الثانية كانت على مشهد من النسوة . و بينما هن منهمكات في الفاكهة وتقطيعها ، أمرت بادخال يوسف فجأة .

«فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا الا ملك كريم . قالت : فذلكن الذي لمتنني فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ماءامره ليسجنن وليكونا من الصاغرين» .

هذه هي المرة الثانية التي يرد فيها أمر السجن .. كانت الأولى تخييرا للزوج : ان يسجن يوسف أو يعذبه عذابا أليما . أما هذه المرة فالسجن والصغار معا .. تكثيف التعذيب جزاء العفه والنظافة ..

وتعكس هذه الصورة مساحة أوسع من الانحلال وقتئذ .. كانت الأولى محصورة في القصر . أما هذه فتشارك فيها نسوة في المدينة .

في الأولى كان هناك شاهد من أهلها . قال كلمة الحق ثم انصرف . أما في الثانية فلا شاهد . وانما استعلان بالمعصية ، وترهيب من الاستقامة ، وترغيب في الانحراف .

مرت القصة بسرعة على الدم السائل من أيدي النسوة ، فلم تذكره في قليل ولا كثير.

وبرزت في الموقف عفة يوسف، بشهادة امرأة العزيز أمام النسوة. و يتوجه يوسف الى ربه داعيا.

رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
(يوسف) (٣٣)

و يبدو من هذه الآية كيف اتسعت دائرة الكيد والغواية.

كان التأثير ومحاولة الاقناع بالسوء، من امرأة العزيز وحدها أول الأمر.

ثم اتسعت الدائرة. هل حاولت النسوة في المشهد الثاني التأثير عليه؟

كيف زادت عليه الضغوط النفسية؟ هل أرسلت اليه امرأة العزيز من النسوة من حاولت اقناعه؟ أسئلة كثيرة تتردد على الذهن، ونحن نقرأ الآية.. ونحس فيها اشارة الى كمال تكوين يوسف.. والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن (أمل اليهن) وأكن من الجاهلين.

لا مجال له في القصر بعد ذلك. ضاق القصر امامه على اتساعه. الهواء الذي فيه ملوث بانفاس الغواية، والنساء فيه داعيات الى الانحدار والرجال فيه مغلوبون على أمرهم. والاستقامة فيه مطاردة. والخير يكتم عندهم، و يقام للسوءات منبر..

يذكرنا هذا بفتية الكهف عندما قالوا:

﴿١٥﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا

(الكهف : ١٦)

ولنتأمل قول الله تعالى : «**فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته**».

ففي الكهف تنتشر الرحمة . وفي المدينة ينتشر الافتراء والكذب ، وتضيق بالمؤمنين .

وهكذا كانت مكة أيضا عندما هاجر منها المصطفى عليه الصلاة والسلام . كانت الرحمة والسكينة والايمان معه في غار ثور . . وكانت مكة تعج برغبات الانتقام ، وقريش أجمعت أمرها على قتل الرسول فأنجاه الله منهم .

يدعو يوسف «**رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه**» . ففي السجن سعة الايمان ، والاقتراب من رحمة الله ، والصبر عن الغواية ومكائد القصر ونسوة المدينة والفتنة المتبرجة . . فتنة اذا لم يصرفها الله عن يوسف صبا اليها . .

ولكن كيف يدخل السجن ؟

نقرأ قول الله تعالى «**ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات**

ليسجننه حتى حين».

أي آيات هذه التي رأوها؟ وعلى من يعود الضمير في قول الله تعالى «ثم بدا لهم». ؟ ثم — وحدها هنا — تفيد الترتيب مع التراخي. والتراخي تدبير. مكيدة ثالثة من امرأة العزيز، لا تمارسها بنفسها، وانما تختفي فيها وراء رجال يملكون الامر بالسجن، واعداد «الآيات» واختيار الوقت، وزج البريء في السجن، حتى حين.. ومتى هذا الحين؟ انه اعتقال مفتوح المدة «سجن الى أجل غير مسمى»...

وهكذا في غياب صاحب الحق، تم اعداد الادلة الظالمة، واتخاذ القرار، وسجن يوسف، دون تحديد مدة للافراج عنه.. اذا استخدمنا لغة العصر الذي نعيش فيه.

وتتسع الدائرة مرحلة ثالثة، لتشمل قطاعا من جهاز الحكم بعد أن ضمت في المرحلة الثانية قطاعا من المجتمع تمثله نسوة المدينة، وكانت المرحلة الأولى حياة قصر العزيز...

ويكتشف امام يوسف في كل مرحلة فساد جديد، لا يزيده الا استمساكا بما يؤمن أنه الحق.

ولكن من السجين حقا؟ يوسف الذي تحيط به الحوائط الصماء، ولكنه الموصول القلب بالله، الواثق من رحمته وفرجه؟ أم امرأة العزيز وحزبها، تحيط بها الشهوات والاهواء، وهي المقطوعة عن أسباب السماء، آثمة اليد والقول.. رغم من حولها من مظاهر السلطة والطغيان؟

وكم من سجين حر القلب .
وكم من طليق سجين القلب .
تبصرة وذكرى . . .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

كان هذان الفتيان من العاملين في قصر الملك : ساقي خمر وخباز . وكانت حياة يوسف في بيت العزيز . وهذا البعد المكاني والوظيفي ، يرجح أنهما لم يكونا على صلة بيوسف قبل السجن . ومن طبيعة السجن أن يجمع الغرباء .. فكيف حكما عليه فقالا : انا نراك من المحسنين ؟ وكيف عرفا انه قادر على تأويل الاحلام ووثقا به ؟ هل مضت فترة رأيا فيها من سلوكه احسانا ؟

نقف قليلا عند قولهما **« انا نراك من المحسنين »** .

هناك تجارب تبدو فيها أبعاد الاخلاق وأعماقها عارية . وهي تجارب الشدة ، وتجارب العطاء من الله . ومن تجارب الشدة السجن ومشاق السفر والاغتراب والدعوة الى الله .. ومن اختبارات العطاء القدرة عليه ، وأن تظل النفس مؤمنة دائما : أن ماعند الله خير وأبقى ، وأن المؤمن الذي عرف مشاق العسر عليه أن يبدل عسر أخيه يسرا ، اذا جعله الله في موقع يستطيع فيه ذلك ..

وكل هذا مر فيه يوسف عليه السلام .

نستطيع أن نتصور حياة الفترة الأولى من سجنه ، وأنها امتداد لخلقه الكريم : كان عونا لأي سجين ، وتخفيفا عما يلقى ، ايناسا في وحدته ، ورعاية ان كان مريضا ، وتوسعة له اذا احتاج الى مكان ، وتحملا لثورته اذا ضاقت نفسه ، واشتد حنينه الى أهله . وغير بعيد ، أن صاحب السجن أحس هذا الخلق من يوسف . وأن وجوده كان اشراقة نور في ظلمة السجن وظلمه ..

ولهذا كان القول ، **«انا نراك من المحسنين»** ..

وتعود بنا هذه الصفة الى مشهد سابق وصف الله تعالى به يوسف .

«ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين» .

فعندنا الآن آيتان : في الاولى ما وصف الله به يوسف ، وفي الثانية ما قال الفتيان في السجن .

و يلقانا هذا الوصف مرة ثالثة ، بعد أن أصبح يوسف على خزائن الأرض ،

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾

وذلك بعد أن مر بمحنة السجن، وظهرت براءته، وشهدت بها امرأة العزيز ونسوة المدينة بعد سنين، وأفتى الملك في رؤياه، واستخلصه الملك لنفسه.

وتلقى هذا الوصف مرة رابعة في قول الله تعالى على لسان اخوة يوسف، وقد عادوا الى ادانته بالغيب، واتهموه بالسرقة صغيرا، ثم قالوا وهم — وهم لايعرفونه — يستعطفونه، وقد أخذ أخاه في دين الملك

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

ثم نلقاها مرة خامسة وقد عاد اليه اخوته، وتعارفوا جميعا، بعد أن كاشفهم بما صنعوا بيوسف واخيه قالوا: أءنك لأنت يوسف؟

قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

ثم نلقاها مرة سادسة وأخيرة في تأويل رؤيا يوسف وقوله لأبيه:

يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ

﴿رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

وفي هذه الآية يعدد نعم الله عليه، و يذكر اجتماع شمل الاسرة، و يثني على ربه.. ثم يعود الى الثناء عليه في الآية التالية بما آتاه من الملك وعلمه من تأويل الاحاديث، و يناجيه قائلا **«فاطر السماوات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلما والحقني بالصالحين».**

غاية المنى بعد الرحلة الطويلة: الوفاة على الاسلام، وصحبة الصالحين في دار الخلود والمقامه.

أرأيت: كل من حول يوسف شهد له بالاحسان. وظلت أخلاقه تشع نورا على من حولها. والنور نور في السجن والقصر والجب والسلطان.. وما نازع يوسف أحدا سلطانه، ولا استكان في ضعف، ولا تجبر في قوة.

وكان دائما ــ كما وصفه ربه ــ وكما شهد له من حوله ــ من المحسنين.. أحسن به ربه، وأحسن هوما استطاع الى الاحسان سبيلا.

وهذا الافق من التماسك الاخلاقي في يوسف، والثبات على الاحسان. حيث يكون، دعوة قرآنية لنا عامة، ولشبابنا خاصة، أن نسير على نهج الاحسان، كما يصوره القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

والآن: كيف أحسن يوسف في موقفه هذا، وأمامه فتيان وثقا به، وشهدا له بالاحسان، وطلبا منه تعبير الرؤيا.. وهي لاحدهما بشير

ولآخر نذير؟

وكيف يترفق معهما في القول، و يتدرج بهما الى أمر، لازال في ضمير الغيب، يراه الفتيان فلا يدركانه. و يسمعه يوسف فيدركه. كأن قد رأى وعاين.

ولقد أوحى الله تعالى الى يوسف، وهو في الجب. وعلمه من تأويل الأحاديث، وآتاه حكما وعلما، وأراه برهان ربه، وهو في القصر. وها هو الآن مرة أخرى في الضيق والسجن: في جب جديد ليس وحده فيه..

والفرق بين يوسف وصاحبي السجن: انهما يعرفان جريمتهما، وأن التحقيق فيها يجري، وأن الحساب عليها قريب.

أما هو فكما قال الله تعالى **«ثم بدا لهم من بعد ماراأوا الآيات ليسجننه حتى حين»**.. سجن مفتوح المدة.

احدهما رأى نفسه يعصر خمرا، وقال الآخر: اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه.

والفرق بين المشهدين فرق بين الموت والحياة. بين العودة الى الأهل والقصر، والصلب حتى تأكل الطير من الرأس.

ترك يوسف امر الرؤيا الى حين.. وماذا كانت تعكس الرؤيا؟

لايذكر القرآن شيئا من ذلك. هل كان الخباز ضالعا في جريمة التآمر؟ وهل كان الساقي بريئا؟

هل أحس كل منهما بمصيره، وقد امتلأت نفسه بذنبه، أو براءته، فجاءت رؤياه بهذه الصورة؟ لا يذكر القرآن شيئا من ذلك،

ولا يدين ولايبريء أحدهما. وانما يعدهما يوسف لتقبل ما يأتي به الغد:

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

و يبدأ يوسف معهم بأمر محسوس: ان يخبرهم بغيب قريب، يفتح به الطريق الى غيب اكبر: سيأتيكم طعام صفته كذا وكذا. ونحن معا في السجن. لاصلة بيننا و بين العالم الخارجي.

و يفتح الباب. و يأتي الطعام. تماما كما قال يوسف. ينظر بعضهم الى بعض: كيف عرف يوسف هذا؟ وفي أدب النبوة يقول يوسف. ذلكما مما علمني ربي. هذا بعض علم الله، هو ربي الذي رعاني ورباني وعلمني. وما أنا الا مبلغ عن ربي..

والأمر ليس أمر رؤيا أو طعام.. انه أكبر من ذلك. انه أمر عقيدة وايمان بالله. وموقف من الحياة. انه اكبر من وجود الانسان في القصر أو السجن.

يستوي في الدعوة اليه أن تكون أمامك الحياة ممتدة، أو يكون السيف على الرقبة.

هكذا دعا يوسف وكأنه يقول:

هذه قضية الايمان بالله تعالى، هي النور الذي أسير على هداه حيث أكون. وأدعوكما اليه حيث تكونون. والى أي مصير تنتهون. وترفق يوسف في المواجهة وهو يقول.. «**اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون**». وأن ماأنا عليه، هو دين آبائي الذين أسلموا لله. «**واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب. ماكان لنا أن نشرك بالله من شيء ان الحكم الا لله ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون**»

إن الحكم إلا لله

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

انتقل يوسف الى عرض ونقد الحياة الدينية فى كل من مصر وفلسطين وقتئذ :

كان التوحيد الذى دعا اليه ابراهيم — على نور من ربه — وابنيه أسحق و يعقوب .

وكان تعدد الآلهة .

وكان الكفر بالبعث والنشور .

وإن لم يكن عاما فيها جميعا .

وتحفظ الآثار المصرية القديمة صورا من الايمان بالبعث والحياة الاخرى ، وما ارتبط بهذا من شعائر الدفن والتحنيط ، والمحافظة على الجسد الارضي ، ليعيش به الميت حياته الآخرة . وما كان يضعون

معه من طعام وحلي ، كأنما هو فى رحلة الى العالم الآخر. وحفظت الآثار المصرية القديمة مراكب الشمس ، ودورها فى هذه الشعائر.

ومع وجود صورة ــ أو أكثر ــ من صور الاعتقاد فى عالم آخر، كان تعدد الآلهة موجودا . كان لهم ثالوث مقدس ، وتاسوع مقدس ، ومحكمة آلهة من اثنين وأربعين إلها ، لهم كبير، ولكل منهم مهمة .

ولا تزال المعابد المصرية ، وما عليها من نقوش ، وما عثر عليه الباحثون من البرديات التى حفظها التاريخ .. ما زالت هذه تصور تلك الحياة الآخرة وما لها من شعائر.

والآية الكريمة تعرض أمورا أساسية :

أولا : هذا الاستفهام الانكاري لتعدد الآلهة« أأرباب متفرقون خير، أم الله الواحد القهار» .. ؟

ثانيا : ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم .

ثالثا : ما أنزل بها من سلطان .

هؤلاء الأرباب المتفرقون فى حقيقتهم ليسوا أربابا . هم مجرد أسماء لا جوهر لها ولا حقيقة . أنتم أيها البشر أطلقتم عليها الاسماء . أنتم أوجدتموها فكرة فى أذهانكم ، ثم حجارة من صنع أيديكم ، ثم عبدتموها من دون الله . وليس لكم ، ولا عندكم ، سلطان بهذا . فالله تبارك وتعالى هو الواحد القهار. وهو المتفرد بالعبادة ، لأنه المتفرد بالخلق. الألوهية له وحده . والربوبية له وحده .

وبعد نفي التعدد للأرباب المزعومة ، وأن الذين أطلقوا عليها أسماء الأرباب لا سلطان لهم بهذا ، يأتي الحكم المحكم في قوله

تعالى : « ان الحكم الا لله : ذلك الدين القيم » الذى جهله كثير من الناس « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وقد شهدت الانسانية صورا كثيرة من الشرك ومن عبادة غير الله .

وتوحيد الله هو أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، وهو معنى قول : لا اله الا الله . يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل ٣٦)

يقول الامام ابن القيم « الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع ، أو مطاع . فطاغوت كل قوم ، من يتحاكمون اليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله . فهذه طواغيت العالم ، اذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها ، رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله ، الى عبادة الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم الى طاعة الطاغوت ومتابعته »(١) .

فدعوة الرسل جميعا واحدة : أساسها توحيد الله تعالى ، وطاعة رسوله ، والعمل الصالح ، والايمان بالجزاء .. يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (النساء : ١٣١)

(١) انظر : تيسير العزيز في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٥٠ ط المكتب الاسلامي..

و يقول تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء)

الأنبياء جميعا ، والصالحون من أتباعهم أمة واحدة

.. فبعد أن قص الله علينا قصصهم فى سورة الانبياء قال :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

(الانبياء)

والعبادة الطاعة . يقول الله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾

(الفرقان)

ان ما جاء فى القرآن الكريم على لسان سيدنا يوسف فى سجنه ، أصل تقوم به الحياة الانسانية على امتداد زمانها ومكانها وتغير أمورها : « ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

اقرأ هذا مع قول الله تعالى لخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فى خواتيم سورة يوسف :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

فليس لبشر أن يحل ما حرم الله ، ولا أن يحرم ما أحل الله ، ولا أن ينازع الله سلطانه فيما شرع لعباده .

يقول تعالى

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

(الشورى)

واذا رجعت الى سورة يوسف من أولها حتى دعوته الى الله وهو بين جدران السجن ، ترى أن المواقف التى فيها قسمان :

قسم : جاء طاعة لله وامتثالا لأوامره ، وعليه اشراقة النور .

وقسم : جاء عبادة للهوى والحسد والشهوة والطمع فى متاع الدنيا القليل ، وعليه ظلمة .

وفيما نستقبل من أحداث القصة ، نرى كيف أن القسم الأول ، وان مر بالجب والسجن ، سينتهي الى نصر من الله وفتح .

وان القسم الثاني ، وان احتمى بالسلطان الكاذب والسلطة الباغية ، سينتهي بانصراف أصحابه عنه ، وتوبتهم وعودتهم الى الله تعالى .

وما نراه في قصة يوسف سنة من سنن الله في المجتمعات ، التي أمرنا الله أن تسير في الارض وندرسها ، ونتخذ منها العبرة ، كما جاء في الآية الخاتمة من السورة :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

و يبقى المشهد الاخير من حوار يوسف :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

ولا يعرض القرآن لعدالة الحكم : هل كان الساقي من قبل بريئا ، وكان الخباز مدانا . ولكن يعرض صدق يوسف في تأو يل

الرؤيا . وهذا هو الذى يمثل حلقة أساسية فى مسار القصة الذى يتابع الساقي فى القصر دون أن يتابع ما حدث للخباز .

وفى نسيج الآية القرآنية « قضي الامر الذى فيه تستفتيان » نحس التشابه القوي مع قول الله تعالى :

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾ ﴾

(الجن)

فالجزء المتعلق بالشر، جاء معه فعل مبني للمجهول « أريد » وجزء الرشد جاء مبنيا للمعلوم « أم أراد بهم ربهم رشدا» . ولما كان في تأويل الرؤيا نجاة وصلب معا، جاء مبنيا للمجهول في قوله تعالى : « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان» ولله الأمر من قبل ومن بعد .

واذا كان الفتيان قد دخلا السجن مع يوسف ، فقد انتهى أمرهما قبله . وصدر الحكم ونفذ أما يوسف فلا تهمة ولا مدة .

ولعله دخل السجن ، ولا يعلم الملك بأمره . فقد كان التدبير كله ــ فيما يبدو ــ على مستوى بيت العزيز : رجالا ونساء وحاشية .

وفي قول الله تعالى : **«ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين »** اشعار بأن الافراد الذين تولوا كبر هذا

الامر، غير محددين . هم أفراد ظلمة ، ممن يعملون فى الظلام ، و يلقون البرىء فى السجن دون تهمة محددة ، ولأجل غير معلوم فلا لوم على يوسف اذا ذكر للساقي ، أن يذكره عند المسؤول الأول فى الدولة . وفى غمرة فرحة الساقي بالرجوع الى القصر والاهل ، نسي صاحب السجن : النبي البرىء . وبقي يوسف بضع سنين . ومع بضع سنين .. هذه لنا حديث .

العدل وحساب الزمن

قبل خروج يوسف عليه السلام من سجنه مرت به ثلاث تجارب كان حساب العدل والزمان فيها مهدرا.

أولا: عندما ألقاه اخوته في غيابة الجب، وأملهم أن يلتقطه بعض السيارة، هل يحدث ذلك، ومتى يحدث، بعد يوم أو أكثر؟
لا حساب للزمن ولا حساب للحياة ذاتها، ما كان يعنيهم إلا أن يتخلصوا منه، ليخلو لهم وجه أبيهم.

ثانيا: عندما توعدته امرأة العزيز بالسجن، وشهدت أمام النسوة بطهارته «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين» الى متى تستمر هذه الضغوط ؟ وما حجم المكائد التي تدبرها امرأة العزيز، ومكائد نسوة المدينة، وحاشية العزيز التي تأتمر بسلطان امرأته؟ لا ندرى.. ولكن القرآن يسجل «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين».

كانت جميع الآيات دالة على طهارة يوسف حتى لجأ الى ربه داعيا «رب السجن أحب اليّ مما يدعونني أليه. والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن واكن من الجاهلين» بدأت المراودة بامرأة العزيز وحدها، وفي دعاء يوسف تحس تكاتف الشر والاغراء من حوله،

«والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن» زاد عددهن وزاد الاغراء. وكان السجن هو الامان الباقي. وهنا ايضا لا حساب للعدل ولا حساب للزمان.. وليضع وقت امرأة العزيز، ووقت النسوة ليمض وقت يوسف عليه السلام، بين مراود وكيد منهن، واستعصام منه، هكذا كانت الحياة في بيت العزيز.. وأي عزة في المجاهرة بالاثم، والدعوة اليه والعقوبة لمن استعصم منه؟.

ثالثا: دخل يوسف السجن مظلوما «ليسجننه حتى حين» وضاع ايضا مع دخوله عامل الزمن، فلا حساب عليه، وزاد من حدة الشعور بضياع العدل والزمن، أنه عندما قال للساقي «اذكرني عند ربك» انساه الشيطان ذكر ربه فلبث يوسف في السجن بعدها بضع سنين.

ولنجمع هنا بين «بضع سنين» «ومن قبلها» «حتى حين» ومن قبلها «يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين».

وبجمع هذه الثلاثة يبدو مدى ارتباط الظلم بضياع الوقت، وعدم حساب الزمن.

وسيظل هذا من أدق المقاييس التي نستطيع أن نقيس بها حياة فرد أو مجتمع أو أمة أو دولة.

الوجه الآخر سنعرضه بشيء من التفصيل، ولكن يكفي هنا أن نقول: ان يوسف عندما فسر رؤيا الملك، وعندما أصبح مسئولا عن خزائن الارض، رأينا الدقة — كل الدقة — في

حساب الزراعة والتخزين والاستهلاك والتوزيع. ووضع خطة امتدت خمسة عشر عاما، يعرف في كل عام ماذا يصنع. ووازن بين ملء المخازن وتوزيعها في نظام دقيق، أبرز ما فيه حساب الزمان والجهد والانتاج.

ويرينا هذا امرا في تربية يوسف عليه السلام: أنه لم يتأثر تأثرا سلبيا بما فعله به اخوته، وهم ظالمون. ولم يتأثر تأثيرا سلبيا بمواقف امرأة العزيز ولا النسوة، لا في اضاعة الوقت فيما لا يجدي، ولا في الظلم ولا في الانتقام، ولم يتأثر بمدة قضاها مظلوما في السجن، وما انعكس هذا عليه اطالة لوقوف الناس على بابه، أو احتجابا عنهم. لم يحدث من يوسف شيء من هذا. ولو احتجب لما رأى اخوته، ولما كان على صلة بالناس: المقيمين منهم والعابرين والقاصدين.

بل ان الحرمان من العدل ومن حساب الزمن، وهما أساسيان في أي شيء تعامل انساني، كان عميق الاثر ايجابا في حياته، وهو أمر نراه في حياة صفوة من الانبياء.

التربية بالحرمان:

لقد نشأ المصطفى عليه الصلاة والسلام يتيما. وذكر الله هذا في كتابه فقال **«ألم يجدك يتيما فآوى»** وبنى عليها نتيجة عملية وأمرا الهيا **«فاما اليتيم فلا تقهر»**. ونشأ فقيرا وقال له ربه **«ووجدك عائلا فأغنى»** وبنى عليها أمرا الهيا **«وأما السائل فلا تنهر»** وجاءت حياته تطبيقا انهيأ على العطاء والسخاء، والبر باليتيم والمحروم، والارملة

والضعيف. وشاع هذا الخلق في بيته الطاهر، وصحبة الابرار، ومن تبعهم باحسان. ووصفهم الله في كتابه فقال:

وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا

(الانسان: ٨ — ٩)

كذلك كانت حياة عيسى عليه السلام، في كفالة امه الطاهرة مريم.

﴿ ﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾

(مريم)

كذلك حياة موسى عليه السلام في كفالة امه

فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(القصص)

وعندما ذهب الى مدين، وسقى لامرأتين تذودان، توجه الى ربه داعيا

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

(القصص: ٢٤)

كانت يد عيسى تمر — بأمر الله — على المريض فيبرأ، و يد موسى تشق الصخر ليتفجر منه الماء. و يد محمد — عليه وعلى جميع الانبياء صلاة وسلام — تفتح للانسان باب المستقبل، في نور الوحي والعلم. وتمر حانية على رأس اليتيم، وتقود الجيش، وتقيم الحياة. وقد اكتسبت من اليتم القديم والحرمان، طاقة حب لكل يتيم أو محروم.

ولقد انعكس السجن على يوسف كراهية لكل أنواع الظلم. وانعكس اهدار الوقت كراهية لسوء التخطيط ، وانعكس الايغال في الشهوات من بيت العزيز، استعصاما بالخلق الفاضل، ومزيدا من الايمان بالاستقامة. وانعكس ظلم اخوته رغبة في اشاعة العدل والحب. وانعكس الحسد الكامن في نفوسهم، دعاء منه أن ينزع الله من قلوبهم الغل. ومن نزع الله الغل من قلبه أحياه في الدنيا بانفاس الجنة ونعيمها. ولنذكر قول الله تعالى في وصف أهل الجنة

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

(الاعراف : ٤٣)

نسأل الله أن ينزع من قلوبنا الغل في الدنيا والآخرة.

نماذج :

وأذكر ممن لقيت من الزملاء وصحبة العمل، هذه الصنوف من الانعكاسات :

صديق مر بمراحل قاسية من الطفولة والشباب، كانت صلابته كالماس لا تعرف قدرها الا اذا حاولت اختبارها. هو صلب في الحق والخير. مستقيم على أمر الله. ومرت فترة الاعداد العلمي بكل قسوتها عليه: العمل صيفا ليكمل نفقات الحياة شتاء. رعاية أسرة هو إبنها، وهو المسئول عنها.. وكان الرضا انسانا. وعاش سعيدا بأن يرزقه الله القوة على تخطي العقبات في هدوء. وتقدم في الحياة، وفتح الله له القلوب والابواب. ولقيته في سلطانه، فكان كما كان أيام الدراسة والكفاح: يبادر الى عون المحتاج والضعيف، وكثيرا ما كان يقول لي: ما أجمل أن تعيد البسمة الى وجه، يسر الله لك أن تقدم اليه خيرا، ولقد أكرمه الله في أولاده فكانوا على أثره استقامة وتوفيقا.

وأذكر زميلا مر في تجارب قاسية في طفولته وشبابه، واستطاع

أن يشق طريقه في الحياة وأن ينجح. ولكنك لا تخطيء ملامح القسوة في وجهه، ولا آثارها في حديثه وسلوكه واختياراته، الحياة عنده صراع، غابة يسير فيها على حذر، ولا يدري من أين يأتيه الخطر، يذكرك بقول شاعرنا العربي يصف الذئب:

ينام باحدى مقلتيه ويتقي
بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

شديد البطش بخصومه. ولا أريد أن أحدثك أن الآثار الصحية السيئة التي تركها فيه هذا السلوك الوعر، ولا العداوات التي يعمل حسابها في اختياراته.

وما أعمق ما وصف به الشريف الرضى والده وهو يرثيه:

رقاء أضغان يسل شباتها
حتى يغير طبع سم الارقم (١).

يقول ان والده كان قادرا على أن ينزع الاضغان من الصدر، ويكسر حدها حتى يغير طبع سم الارقم، وهو أخبث الحيات، وأطلبها للناس. فلو كان عدو حية، وكلامه سما، لاستطاع أبوه أن يشفى صدره من الاحقاد والسموم. وفي هذا صورة حية للقلوب المبرأة من الغل، والقادرة على تطهير الصدور منه.

---

(١) ديوان الشريف الرضي ٢: ٧٣٩

تعبير رؤيا الملك

بقي يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين. وطوى ساقي الملك ايام السجن الى غير رجعة، فلا ذكره ومن فيه، و يوسف يتوقع — من حين الى آخر — أن يذكر الساقي ربه بقصة البريء السجين بغير تحقيق ولا مدة.

و يعكس هذا النسيان جانبا من الحياة وقتئذ، فلكل شأن يغنيه.

ولو ضممنا هذا الجانب الى جوانب أخرى سبقت، من الظلم وهدر الوقت واتباع الاهواء وحكم الشهوات وسجن الابرياء، الى عبادة ارباب متفرقين.. لوجدنا صورة من التفسخ الاجتماعي الذي يرتبط دون شك بانحلال اقتصادي وسياسي. فجوانب الحياة متشابكة وتتبادل التأثير. وقد رأينا من بيت العزيز وننتقل الآن الى قصر الملك.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

هل حاول الملأ — وهم السادة حول الملك — أن يكتموا عنه أمر الفساد المستشرى في أجهزة الدولة، والذي رأينا صوره في بيت العزيز، والسجن الذي يضم الابرياء وغير الابرياء لمدة وبغير مدة؟ ألا يحتاج هذا الانحلال الاخلاقي الى نفقات؟ أليس له تأثير على نسوة المدينة، وبالتالي على أسر المدينة وعلى الحياة الاجتماعية فيها..؟.

هل كانت أموال الناس تؤخذ عن طريق العزيز واعوانه بالباطل ويدلون بجزء منها الى الملك وحاشيته بينما المجاعة توشك أن تقصي على البلاد فلا تبقى ولا تذر؟ هل كان وراء الرخاء الظاهري والقريب، والعيش الرغيد أيام كالحات وسنوات عجاف؟

أكاد أحس أن الحقائق عندما حجبها الملأ عن الملك في يقظته، تسربت اليه أحلاما في نومه.. وماذا رأى؟ البقر: ذلك الحيوان الاليف الذي يقوده الطفل في الحقل.، وتركبه الصغيرة آمنة، وتحلبه وبين يديها الوعاء مطمئنة. هذا البقر يتحول الى بقر مفترس. كيف يتحول آكل العشب الى آكل لحم؟ وكيف يتحول الحيوان الانيس الى وحش ضار.. **«اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف»**. رمز يحمل انفجار الكائنات الهادئة في ثورة يأكل بعضها بعضا، ومن بعدها تنحني السنابل اليابسة على الخضراء، فتطويها وتخفيها. هل هذا نذير بثورة جياع ان لم يدركها عاقل؟

ما البقرات السمان والعجاف؟ وما السنبلات الخضر

واليابسات؟ ثم ما دلالة العدد (سبع) وتكراره في قطاعي الرؤيا .؟

يعرض الملك أمره **«يا أيها الملأ افتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون»**.

والملأ سادة القوم وحاشية الملك. و يأتي الرد من مقطعين، وكان الحلم من مقطعين:

المقطع الاول في الرد: اضغاث احلام، هذه اخلاط لا عبرة فيها ولا مغزى لها.

المقطع الثاني: وما نحن بتأو يل الاحلام بعالمين.

والمقطعان متناقضان: اذا قلتم أضغاث أحلام، فهذا حكم وقرار، ولايصدر القرار الا من يقدر على تعبير الرؤيا.

والمقطع الثاني تقولون فيه: وما نحن بتأو يل الاحلام بعالمين.. فاذا كنتم تجهلون، فلماذا قلتم أضغاث أحلام؟ ردوا الامر الى من يعلم، أو كان عليكم أن تكتفوا بالمقطع الثاني وحده ردا، وتنصحوا الملك بأن يوسع دائرة المشورة، فلعله أن يجد من يعينه على تفسير الرؤيا.

رتشتد حاجة الملك الى تعبير رؤياه. ولعل الرؤيا قد لاحقته مرة بعد مرة، ملاحقة تعبر عن احساس كامن بالمسئولية، ضاع بين جهل الملأ من حوله، واشتغال العزيز ومن معه، بما هم فيه من شهوات، وتآمر على الابرياء الاطهار.

وهنا يأتي دور الساقي، عندما يحس حاجة الملك الى من

يعبر له الرؤيا، وأن من حوله عجزوا عن ذلك..

وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

ولا يذكر القرآن لوما من يوسف ولا عتابا على الذي نجا، وأنساه الشيطاه ذكر ربه، وبقى يوسف في السجن سنين.. ولكن يختصر الأمر، فاذا بنا ننتقل في سرعة من قصر الملك الى أعماق السجن، والرؤيا يعرضها الساقي امامه، وبفضل من الله على يوسف في قوله **«وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث»** وكانت هذه بشارة يعقوب. ثم تحقق البشارة في قوله تعالى **«وكذلك مكنا ليوسف في الارض ولنعلمه من تأويل الاحادبث»**. وبتحقيق ذلك عمليا في تفسيره رؤيا صاحبي السجن. على مسار هذه البشريات وتحققها، وتطبيقها وبفضل من الله، يقول يوسف:

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ

﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾

وينقلنا هذا التعبير، بل ينقل المجتمع كله، من مرحلة الظلم والتسيب وهدر الزمن، وتشتت الجهود في الشهوات، الى عهد بناء وتكوين وانتاج، وحساب دقيق للزمن والتوزيع والاستهلاك.

خطة كاملة اقترحها يوسف مستوحاة من رؤيا الملك، وهو المسئول الاول عن هذا المجتمع.

خطة مدتها خمسة عشر عاما تنقسم الى ثلاث مراحل، اثنين من رؤيا الملك، والثلاثة والاخيرة ومدتها سنة، من وحي الله.. ولنبدأ بالمرحلة الأولى:

«تزرعون» هذا خط انتاجكم جميعا، كلكم يعمل.

«سبع سنين» حدد الوحدة الزمنية، سنة وعدد الوحدات الزمنية، سبع.

«دأبا» عملا دائبا، لا كسل فيه ولا تهاون، بعبارة أخرى: رفع الكفاءة الانتاجية، وكل هذا في قطاع الانتاج.

يلي هذا قطاع آخر هو الادخار والتخزين، فما حصدتم فذروه في سنبله: تبقى الحبوب في سنابلها، فذلك الافضل في تخزينها واسلم من تداول الحصاد بين الايدي: فمن الحقول الى المخازن.

ومع الانتاج والادخار، خفض يوسف معدلات الاستهلاك في قوله «**الا قليلا مما تأكلون**».

وبكل صراحة المخطط الشريف قال لهم: ستعملون كثيرا وتدخرون كثيرا وتأكلون قليلا، سبع سنين.

وبعد هذا تأتي سنوات عجاف ينخفض فيها ماء النهر، فلا نستطيع زراعة ولا انتاجا. وعلينا أن نقسم ما في المخازن قسمين: قسم كبير للاستهلاك، ينقسم بدوره سبع وحدات، كل وحدة نستهلكها في عام، وقسم آخر نحتفظ به مهما تكن شدة الايام التي نلقاها، وهذا القسم المدخر «**نحصنه**» من الاستهلاك من الآفات ومن السرقة. ذلك لأنه هو الذي نعيد به الاستثمار بعد فترة الجفاف التي تستمر سبع سنين. وفي هذا نقرأ قوله تعالى «**ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون**». وعند هذا تنتهي رؤيا الملك وتبدأ بشريات النبوة، «ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس» يأتي الغوث فيضانا جديدا ومطرا، فتزرعون البذور التي احتفظتم بها وتعصرون الثمار التي تنبتها أرضكم.

وبهذا كان تعبير الرؤيا جامعا بين العلم والحكمة والنبوة معا، في أسلوب موجز مركز، يلائم الظرف الذي هم فيه. ويختلف المقام هنا عن الايضاح الذي رأيناه في شرح يوسف لصاحبي السجن.

الشرح في القصر: انقاذ وعمل وخطة واضحة، فيها نور

العلم، والنبوة، شرح يدعو الملك الى سرعة اتخاذ القرار لتنفيذ الخطة وانقاذ المجتمع، وتبرئة البريء، واسناد المسئولية الى من يستحق.

فرق بين خطة انقاذ، وبسط القول في الدعوة الى الله. كلاهما خير ولكن لكل مقام مقال.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

وهذا موقف من يوسف عليه السلام، تبدو فيه أخلاق النبوة : علما وحكمة وصبرا .

وهذه الثلاثة محاور أساسية في السورة .

لم يتعجل يوسف الخروج ، رغم أنه ــ قبل سنين ــ قال للساقي :

اذكرني عند ربك .

هو الآن على عتبة عهد جديد ، وفي نهاية محنة السجن .

وقول الملك **«أئتونى به»** مجرد طلب احضار، أحس معه يوسف أن صحائف الماضي ستفتح من جديد ، وعليها ظلال من صنع امرأة العزيز والنسوة ونفر من الحاشية ، ظلال كأنها بينات ساقته الى السجن .

وكان خيرا ليوسف أن يتم التحقيق في غيبته ، واقترح يوسف المدخل الى التحقيق بسؤال **«ارجع الى ربك فاسأله : مابال النسوة**

اللاتي قطعن أيديهن»؟

وكان شمول التحقيق أكثر من واحدة، **تخشى** كل منهن، اذا افترت السوء، أن تقول صواحبها الحق، وتبدو **هي** كاذبة أمام الملك.

فكان الصدق أنجى، واشهدن الله **على ذلك «قلن حاش لله، ما علمنا عليه من سوء»** وكان النفي لأي علم: مشاهدة كان أو سماعا.

وتضيق دائرة التحقيق أمام امرأة **العزيز، وتتسع أمامها** دائرة الحق والتوبة.

ان يوسف لم يذكر عنها **في سجنه، ولا في** رسالته الى الملك شيئا. ولها عند يوسف صورتان:

أولاهما: هي فيها بمنزلة الأم، التي أكرمت مثواه حتى بلغ أشده.

والثانية: عندما جاءها ذلك النزغ من الشيطان، **فراودته عن نفسه**، واتهمته بالباطل، **وتحدثت** به الى النسوة، **واعترفت أمامهن ببراءته** واستعصامه، ثم كانت من الذين دبروا **دفعه** الى **السجن** سنين.

ومع هذا كله، **يحفظ** يوسف الجانب **الخير** من اكرامها، وقد علا **نجمه**، واقترب من الملك، فكانت هذه مأثرة **أخرى ليوسف**:

قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ

لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

ولنذكر ان يوسف لم يقل عنها من قبل، الا جملة واحدة، وفي حضورها، ولم يكن أمامه الا أن يقولها **«هي راودتني عن نفسي»**، وأخرى جاءت ضمن دعائه، رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه، **والا تصرف عنى** كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين.

أكدت امرأة العزيز براءة يوسف، وهو في سجنه **«ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب»** نعم لقد خنته في وجهه، وافتريت عليه السوء، ولكني **الآن** أشهد في غيابه أنه صادق. وهي شهادة بأني لم أخن زوجي مع يوسف.

ثم تتوجه امرأة العزيز الى الله تائبة، معترفة بما كان منها وكأنها في توبتها تغيب عن مشهد من حولها، الى مشهد تفرغ فيه الى ربها، فكانت حاضرة غائبة، كما أن يوسف غائب حاضر وهي تقول:

«وما أبريء نفسي، ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربي ان ربي غفور رحيم».

وتأمل تكرار النطق بالرحمة والربوبية.

ولنا في هذه الآيات وقفتان :

الأولى : مع يوسف في طلب البراءة ، قبل أن يخرج من سجنه .

والثانية : في توبة امرأة العزيز .

أما عن يوسف ، فكان من الخير له ، وللملك والعزيز ، ولأطراف القضية جميعا ، أن يستكمل فيها تحقيق «عادل» تظهر فيه براءة البريء ، وتوبة الخاطيء ، واعتراف الشهود بالحق ، وصاحب الحق بعيد عن مظنة أي تأثير على التحقيق . ذلك لأن مجلس الملك ان كان مجلس حق ، فسيظهر الحق ، ولو غاب صاحبه . وان كان مجلس باطل ، فسيضيع الحق ، ولو حضر صاحبه .

وليوسف في بيت العزيز تجربة ، ضاع فيها حقه وهو يشهد . وقاده الطهر والاستعصام بالحق الى السجن بضع سنين .

وعندما أضاء الحق مجلس الملك ، وظهرت براءة يوسف كان الاستدعاء الثاني المجاب **«وقال الملك أئتوني به استخلصه لنفسي»** وفي هذا القول تأمين يوسف وتكريمه عند خروجه . ولم يقل الملك ، أئتوني به يعمل عندي . أو أئتوني به أنظر امره . فلما كلمه . أظهر الحوار جوانب جديدة مضيئة من علم يوسف وحكمته . وكان من تريث كل من الملك و يوسف ، ما أعان على ظهور هذه الجوانب ، فقال الملك **«انك اليوم لدينا مكين أمين» . مكين : هذه من الملك.أمين : هذا ماظهر منك ، وحكمنا فيك .**

نعود الى امرأة العزيز وقول الله. «ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربي».

ففي الآية صنفان من النفوس: نفس امارة، ونفس مرحومة، وتستطيع الامارة أن تصبح مرحومة، اذا مرت على جسر التوبة، مستغفرة ربها، متوجهة الى أفق الطاعة. وهذه هي النفس اللوامة. النفس العائدة الى طريق الهدى، وبها أقسم ربنا تبارك وتعالى في قوله

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾

(القيامه ،)

وكما أن احساس النفس بالذنب، ولومها صاحبها، يجمع شتاتها من أرض المعصية، ويقودها الى أفق الرحمة، كذلك تتجمع العظام بعد أن ضلت في الأرض، وتستوي كيانا سويا، بأمر الله تعالى. والفرق بين الأمرين: أن أحدهما طاعة كونية، والثاني طاعة ارادية دينية، يستجيب بها الانسان لأمر الله تعالى

۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ

(الزمر ٥٣)

و تسير النفس التائبة ، في آفاق الرحمة ، التي تبينها الآية الكريمة .

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

(الفجر)

فهي مرضية من ربها ، راضية بطاعته وجنته ، وفي جمعها بين الامرين ، وذكرها الدائم لله ، تطمئن به

أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(الرعد)

و يصبح الاطمئنان مقامها ومستقرها ، الذي تلقى عليه ربها ، متحققة بالعبودية ، ومتحصنة بها

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

(الانعام)

ونعود الى القصة ، والى مشهد لقاء الملك ، لنرى كيف التقت النفوس على الحق والتوبة والصفح الجميل ، وتهيأت لاستقبال مسئوليات جديدة ، عبر عنها يوسف :

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وهنا ترد أسئلة . : كيف يطلب يوسف لنفسه العمل ، و يصف نفسه بقوله « **اني حفيظ عليم** » ؟ وكيف يكون تعاونه ، ولم يرد في القرآن الكريم نص محكم على أن القوم اتبعوا دينه ، وتركوا ماكانوا عليه من عبادة الأر باب المتفرقين من دون الله ؟ وهل كان تعاونه في نطاق محدود ؟ كأن يؤدي مهمة ، هي مسئوليته أمام الملك ، ثم أمام الشعب الذي سيعمل معه ، و يتحمل الجهد ، على أن يعبر بهم السنوات العجاف ؟

بعض هذه القضايا والمسئوليات ، ذات الطبيعة المحدودة ، في المجتمعات غير المؤمنة بالتوحيد الخالص ، يلقاها نفر من شبابنا الآن في الخارج .. ولنا معها وقفة ودراسة .

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

حدث هذا بعد مرور السنوات السبع السمان وبعض العجاف. وهي سنوات لا يذكر القرآن من أمرها شيئا: عشر سنوات أو اكثر من وقت أن قال يوسف «**اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم**» وما ذكره الله تعالى من فضله على يوسف «**وكذلك مكنا ليوسف في الارض، يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء، ولا نضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون**».

سبع سنوات من العمل الدائب، زرعا ورعاية حقول وحصادا وجمعا للمحصول في المخازن، وحراسة المخازن، وتحديد القدر القليل المأكول، ومتابعة هذا العمل عاما بعد عام، بما في ذلك الاستعداد له ببناء المخازن الصالحة، وكفالة النقل اليها، وصيانتها وتوفير الافراد القادرين على ذلك: امانة وايمانا بالخطة الطويلة. وطيف البقرات السمان والعجاف، والسنابل الخضر واليابسات، نذير لا ينجى البلاد منه، الا العمل الدائب المنظم.

وفي هذا تختلف رؤيا الملك عن رؤيا الساقي والخباز. رؤيا الملك نذير، على المجتمع أن يتجنب حدوثها، والسابقة رؤيا قال

فيها القرآن الكريم **«قضي الامر الذي فيه تستفتيان»**.

ولقد كان تأويل الرؤيا السابقة، دليلا على صدق يوسف، فكيف يقبل منه الملك تأويل رؤيا نذير، لتصبح بشيرا، اذا أخذ القوم بأسباب النجاة؟

ومن الذي يحمل مسئولية تحويل النذير الى بشير؟ لقد تقدم يوسف الى هذه المسئولية، وهو يعلم أن ثمن الفشل فيها أن تأكل المجاعة الارض وما عليها.. وبعض من عليها. ثمنه أن تتحول الابقار الهادئة الى ابقار مفترسة، وهكذا رآها الملك. وأن هذه المسئولية تستمر سبعة اعوام أخرى. و يوسف ليس معه الا ايمانه بالله تعالى، وتربيته الربانية النبوية: غريب عن الدار ليس له عصبية من قومه، ولا رهط يدافعون عنه.

فعندما قال: اجعلني على خزائن الارض، اني حفيظ عليم.. كان يتقدم بمسئولية شاقة، وعمل دائب، لا تظهر ثماره الا بعد سنوات الانتاج، وقدرة يوسف على تخطي السبع العجاف، حتى يأتي العام الذي فيه يغاث الناس.

وما الثمن اذا أخطأ؟ ثورة جياع، أول أهدافها وضحاياها هذا الذي تقدم لحمل المسئولية، والذي أجهدهم سبع سنوات من العمل الدائب، ثم عجز عن أن يعبر بهم سنوات القحط.

يوسف اختار العمل والدأب والمسئولية، تماما كما يتقدم قائد الى مهمة شاقة، متعددة المخاطر، طويلة الامد.

وتقدم يوسف للعمل والخدمة العامة، مما يحمد له، فهو ليس طالب ولاية أو باحثا عن منصب.

ثـم ان الامـر هـنـا غير بعيد عن مهمته كنبي، انظر الى قوله تـعالى: **«وكذلك مكنا ليوسف في الارض، يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء، ولا نضيع أجر المحسنين»**.

لـم يـكـن في ذهـن يـوسـف تـبـوأ المتعة والتنعم، فهو يحمل مسئولية كبيرة وأقول ــ والله أعلم ــ ان مفهوم «يتبوأ منها حيث يشاء» هو سهولة تنقله بين اجزاء مصر، واقامته هنا وهناك، مشرفا على المشروع الكبير، وأن الله ــ مع سنوات السجن وبعدها ــ يسر له التحمل البدني والنفسي والفكري، الذي يستطيع به انجاز هذا الامر، مرحلة بعد أخرى، وأن يوسف ــ كما هو العهد به دائما ــ كان من المحسنين، وأن الله حفظ له أجره على ماقدم من خير، لحاكم ولامة، رضيت أن يحمل معها ولها هذه الامانة.

فالتمكين والتبوأ، والرحمة، والاحسان، كلها قوى يرفد بعضها بعضا، كما تترافد التربة الطيبة والماء الطهور، والهواء، في انبات شجرة طيبة.

لم يذكر القرآن الكريم في هذا الموقع في السورة شيئا محددا، عن تطور الوضع الديني في مصر، بعد أن تولى يوسف امر خزائن الارض، وقد يتوسع البعض في فهم قوله تعالى **«وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء»**. وتمضي الآيات بعد هذا مباشرة تعبر السنين الى دخول اخوة يوسف عليه، «فعرفهم وهم له منكرون».

والقرآن يفسر بعضه بعضا، فالجانب الديني في هذه المرحلة بالذات، نقرؤه في سورة غافر. وفيها يقول مؤمن آل فرعون وقد كان يكتم ايمانه من قبل يقول مخاطبا قومه، وقد هددوا موسى بالقتل

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ (غافر)

وتبين الآية تشابها بين الموقفين في عهد يوسف وموسى. والقوم بين مؤمن وكافر، وأن معسكر الشك كسب انصارا بعد وفاة يوسف، وعاد القوم أو أكثرهم الى ماكانوا فيه.

ان الذي تركز عليه الآيات هو نجاح يوسف فيما تقدم لحمله: مسئولية اطعام الناس، والموازنة بين الانتاج والاستهلاك، والادخار واعادة الاستثمار.

وعلى هذا نقول: للذين يعملون في ديار لا تدين بالاسلام، أن يخلصوا فيما تقدموا لحمله من مسئوليات، وهم الآن منتشرون في قارات الارض جميعا. ولا يكاد يخلو منهم قطر. ورأس مال الفرد منهم: ايمانه، ودأبه واستقامته وقدرته على انجاز ما يكلف به من أعمال، أو يحمله من مسئوليات. ومن هذه الخطوط تبدو ملامح الشخصية الاسلامية.

لـم يـكـن عند يوسف انعزال عن الحياة، وانما خاض وحيدا مـسئـولـيـاتـهـا، بـعـد تمـهـيد .استمر اعواما، تحدد فيها الكثير من اخـلاقه، وكـل مـرحـلـة لاحـقـة تكشف الجديد من هذا المعدن النبوي الكريم.

ولـنـذكر ان من أكبر عوامل انتشار الاسلام في غرب افريقيا ووسـطـهـا، وشـرقـهـا، وعالم المحيط الهندي والهادي، ما قام به المـلاحـون والـتـجـار المـسـلـمـون، والتأثير العميق لاخلاقهم فيمن خالطهم من أهل هذه الديار.

والآن وفي الـصـحـوة الاسـلامـيـة في الـقـرن الخـامـس عشر الهـجـري، نشهد ان اكبر ايجابياتها: اخلاق وعلم وانجاز. واكبر سـلـبـيـاتـهـا: مـايشـهـده العالم من صراع بين المسلمين يصل الى الـتـخـريـب والـتـدمير والتآمر والاغتيال، و يقول الذين لا يؤمنون بـالاسـلام: لـو كـان ديـنـهـم يـأمرهم بالخير، وله في نفوسهم أثر عميق، لرأينا هذا في تعاملهم بعضهم مع بعض..

لـم يـكـن مـن يـوسـف ـــ وحاشاه ان يقول أو يفعل ـــ ان يتسحل شيئا مما أؤتمن عليه، بحجة انه مال قوم لا يؤمنون بالله. فـالامـانـة أمـانـة، والله تـبـارك وتـعـالى يعلمنا

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل : ٩٠)

والرسول عليه الصلاة والسلام، بعد كل الاذى الذي أصابه وأصحابه في مكة — وعند هجرته — ترك سيدنا على بن ابي طالب رضي الله عنه في فراشه، ليرد الودائع المحفوظة عنده الى أهلها. كانوا يخططون لقتله — عليه الصلاة والسلام — وهو يخطط لرد الامانات، وبهذا الخلق الكريم، استطاع الاسلام أن ينفذ الى القلوب العصية. وكانت اخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، قرآنا حيا بين الناس، يدعو بالعمل والاسوة، كما يدعو القرآن بالكلمة الطيبة.

أما مواقفة عليه الصلاة والسلام في المدينة وبعد تكوين قاعدة الاسلام، وقيام قريش بمصادرة اموال المسلمين في مكة. فهذا امر آخر وحرب بين قوتين كل منهما تعرف موقف الاخرى منها، وتأخذ له أهبته في الاقامة والسفر يقول اله تعالى

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

(الانفال: ٥٨)

تبدو من هذا العرض المقارن صور، ارجو أن يكون فيها تبصرة وذكرى لشبابنا، وبخاصة المغترين منهم، ليعملوا في مواقعهم، ماداموا بعيدين عما حرمه الله، وليكونوا — ما استطاعوا — نموذجا كريما، لما يدعو اليه القرآن الكريم.

لقد قص الله على نبيه قصص الانبياء من قبل ثم قال له

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

(الانعام: ٨٩ — ٩٠)

فاذا كانت دعوة للرسول عليه الصلاة والسلام ان يقتدي بهداهم فما أحرانا أن نقتدي بهداهم وهداه.

وجـــاء اخـــوة يوسـف

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

يبدو أن المجاعة كانت من دورة جفاف شملت المنطقة كلها ولو كان الامر مقتصرا على فيضان النيل، لظهر الأثر في مصر وحدها. ويبدو ايضا أن أخبار الجفاف تناقلتها الركبان، وأن استعداد مصر وتوفر غلاتها جذب اليها من حولها، ممن أرهقتهم دورة الجفاف.

ولو أضفنا هذا الى ما يعيه ذهن يوسف، وما يصدقه به قلبه، من وعد الله وهو في الجب «وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون» لكانت المجاعة أنسب الاوقاف التي تجتذب قومه الى مصر، والتي يحرص معها يوسف على رؤية الوافدين، وبخاصة من شرق مصر.

ونستطيع أن نتصور الفجوة الاجتماعية بين المسئول الاول عن خزائن الارض، وبين قاصدين مسهم وأهلهم الضر، ويرون من اكرامه ما تنطق به ألسنتهم حديثا عن أسرتهم: الأب والأخوة، والحديث يقترب رويدا رويدا مما يقصد يوسف، وعند سفرهم تجري أمور أربعة:

أولا: أنه جهزهم بجهازهم، وبهذا يكفل الطعام لهم ولأسرته.

ثانيا: أنه اشترط لعودتهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم.

ثالثا: انذار بمنع الكيل اذا لم يأت الأخ.

وتقرأ قوله تعالى:

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

وبهذا جمع بين الاغراء والتحذير والاطمئنان على وصول الطعام الى أسرته.

قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

وقولهم «سنراود» تحمل أن احضاره ليس يسيرا، ولكنهم قادرون على اقناع أبيهم بذلك، وسيحاولون.

وهنا يأتي الأمر الرابع: كيف يضمن يوسف عودتهم اذا كانوا لا يملكون ما يشترون به الكيل في المرة المقبلة؟ تشتد المجاعة، وقد يكونون فقراء، ستر الحياء والعفة فقرهم.

وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

وكأن يوسف قد دفع من ماله ثمن الكيل، ورد البضاعة الى اخوته ليعودوا، وهذا هو الاقرب الى البر باخوته، والامانة في عمله.

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

عندئذ، تحرك الحزن القديم، لقد ضاع يوسف في نزهة قريبة «ارسله معنا غدا يرتع و يلعب، وانا له لحافظون» وهذه رحلة طويلة، وديار غير الديار، ولماذا الاصرار على أخيهم من أبيهم؟ ومن أخبر العزيز أن لهم أخا من أبيهم لم يحضروه؟ وما الذي عاد على الاب من كلامهم الكثير مع العزيز؟ ثم ما هذا القرار الذي اتخذه العزيز بين الترغيب والترهيب؟ وما العلاقة بين الكيل واحضار أخ لهم من أبيهم؟

و يبدو أن الحوار دار بين يعقوب و بنيه، والدواب لا تزال محملة. أو ــ على الأقل ــ الاحمال لا تزال مغلقة.

و يوافق الاب الحزين على ذهاب ولده قائلا:

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن

قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

وتبدو هنا بارقة أمل جديد.. أن يعودوا بالطعام والبضاعة معا. وتذكروا كلمة العزيز **«ألا ترون أني أوفي الكيل وانا خير المنزلين»** لقد أكرمهم في اللقاء، وأكرمهم في الكيل، ورد إليهم البضاعة. وهو حريص على أن يزداد تعرفا بهم. كلها بشريات خير، تبين أن العزيز الذي أحسن اليهم من قبل، سيحسن اليهم من بعد، وأن وجود اخيهم معهم، اسعاد له، وزيادة في كيل في وقت مجاعة.

وبهذا استطاع يوسف بحكمته تحريك الموقف في موقعين:

الاول: واخوته عنده في مصر.

والثاني: في حوارهم مع أبيهم في دارهم.

يوسف في تحريك الموقف، يلجأ الى عناصر متعددة: العناصر النفسية، كحديثه مع اخوته حتى يعرف منهم أمر أبيه وأخيه، والى العناصر الاقتصادية والنفسية معا وذلك برد البضاعة الى رحالهم دون أن يشعروا فتكون المفاجأة امام ابيهم، أو عنده. وقد كان أثر تحريك العامل النفسي قويا عند أبيه، وذلك بكل

الخير الذي نقله الاخوة ليعقوب عنه، وما تكشف من عودتهم بالكيل والبضاعة معا.

هل كانت هذه رسالة خير تمهيدية وصامتة من يوسف لابيه، تفتح قلبه لهذا العزيز البعيد؟.

لا مجال للقول أن «منع منا الكيل» ينصب على الرحلة الاولى، وأن فتيان يوسف أخذوا الكيل ووضعوا البضاعة، ففي هذا غدر لا يتفق مع أخلاق يوسف، وانما «منع منا الكيل» ينصب على الرحلة المقبلة، الا اذا صحبوا أخاهم ليأخذ من الكيل نصيبه. أما الشيخ الكبير فعذره كبر سنه، وسوء صحته، وبقاؤه مع ولده وزوجة ترعاه في ضعفه.. وكل هذه العوامل سيعالجها يوسف فيما يستقبل من أمره مع اخوته.

ولا يبقى الا أن يستوثق الاب من وفاء ابنائه بما وعدوه به، وأن يحافظوا على اخيهم في رحلتهم هذه الثانية.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

ويبدو الفرق بين قوله هذا، وقوله عندما أرسل يوسف معهم **«اني ليحزنني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب، وأنتم عنه غافلون»..**

في الثانية موثق من الله: ان يعيدوا اليه أخاهم، الا أن يحاط بهم. الا أن يغلبوا على أمرهم. وقبلوا هذا الموثق: أن يكون مصيرهم جميعا واحدا. ثم أشهد الله على قبولهم هذا الميثاق.

ولكن باحساس الاب وعمق نظرته، وهم أخوة لاب واحد، أوصاهم أن يتفرقوا عند دخولهم ابواب المدينة، فلا يكونوا معا. فرجال عشرة، متشابهو الوجوه، يدخلون معا الى المدينة، مقبلين من البدو، والوقت مجاعة، اما أن يلفت الانظار الى ما معهم، أو يلفت الانظار لخطر ينتظر منهم. والقول في هذا كثير: يتراوح بين خوف الحسد، وتأمين المسار أو سر بين يعقوب وربه، ونصيحة نبي لاولاده:

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

غاية أمر يعقوب في هذا التوجيه: ربط ابنائه بميثاق مع الله، مؤكدا وحدة مصيرهم، وأن يكونوا على حذر، فلا يدخلوا الباب من باب واحد. ومع الاخذ بكل هذه الاسباب، يرد الامر كله لله، فليس غاية اتباع النصح هنا ضمان نجاتهم جميعا. **«وما أغنى عنكم من الله من شيء»** ففوق النصح والحيطة قضاء من الله وقدر، وحكمة تخفى على البشر، ثم تبدو، أو

يؤجل الله ظهورها الى حين. ماذا يحدث؟ ومتى يحدث؟ وكيف يحدث؟ «ان الحكم الا لله».

وقد ورد هذا المقطع في موضعين من قصة يوسف.

الاول. في دعوة يوسف صاحبي السجن، والتوجه الى الله وحده بالعبادة، ونبذ عبادة الارباب المتفرقين. ماتعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان. ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه. فهذا توحيد الالوهية.

الثاني... **«وما أغنى عنكم من الله من شيء ان الحكم الا لله»** فهذا توحيد والايمان بان الله غالب على أمره. وأن على العبد أن يتوجه اليه، وأن يبذل اقصى الجهد فيما يقصد، ثم يتوكل على ربه، «عليه توكلت».

فقول يعقوب يفيد توكله هو على الله، و يدعو أبناءه الى التوكل عليه سبحانه، وهذه صفة كل مؤمن. ولهذا جاءت القضية عامة في قوله، **«وعليه فليتوكل المتوكلون»**.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وتبدو قصة يوسف وكأنها في هذه المرحلة تسير في عدة مستويات في وقت واحد .

الاول : مستوى الاخوة الذين آتوا أباهم موثقهم ، وأخذوا ينفذون ما أدركوا من نصحه يسيرون معا ثم يتفرقون . وعند الشدة يجتمعون «**لتأتنني به الا أن يحاط بكم**» .

الثاني : مستوى يعقوب ، في قول الله تعالى : «**وانه لذو علم لما علمناه**» .

وحدود هذا المستوى ، أو سقف هذا المستوى ، نقرؤه في قوله تعالى : «**وما كان يغني عنهم من الله من شيء ، الا حاجة في نفس يعقوب قضاها**» .

الثالث مستوى يوسف بما أعد لاخوته من تدبير ، دائرته اوسع من دائرة ابيه دون أن يتداخل معه .

فلقد مرت مرحلة دخولهم من أبواب متفرقة بسلام ، ووصلوا الى

دار العزيز، حيث وجدوا ــ من قبل ــ الاكرام العريض، وايفاء الكيل ورد البضاعة وحسن اللقاء. وهاهم نجحوا في احضار أخيهم معهم.. فماذا هو فاعل هذه المرة، وقد توثقت الصلة ووفوا بما قالوا **«سنراود عنه أباه وانا لفاعلون»؟**

و بهذا لا نشهد تداخلا بين تدبير يعقوب، وتدبير يوسف. وسيأتي المشهد المقبل ليكشف عن نفوسهم جانبا لا زال معتما. جانبا على استعداد للبروز، اذا ما أزيلت القشرة العليا من حسن القول، والتلطف مع العزيز.

الرابع: مستوى التدبير الالهي الذي يوحيه الله الى يوسف، لينتقل الامر من تعبير رؤيا، الى قول في اليقظة يتحقق في عالم الشهادة، وهو أمر قميص يوسف، وعودة البصر الى أبيه.

و يبدو اخوة يوسف هنا في المستوى الادنى من القصة: مستوى، سنرى كيف تمر عليه يد يوسف الحانية ــ بأمر الله ــ لترفعهم منه، كما رفعت من قبل امرأة العزيز: من نفس امارة بالسوء، الى نفس مرحومة.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

كيف ترفق يوسف بأخيه؟ كلمة «آوى» هذه تحمل عطفا ورحمة وتدرجا في الاخبار، لئلا تفاجئه صدمة الخبر. هل سأله عن ابيه؟ هل سأله عن أخيه الذي فقده منذ سنين؟ هل أشار الى بعض

ما يعي من طفولته و يشاركه فيه اخوه من حب وايناس، ورفقة في ظل أب رحيم، وأم حانية؟ وشيئا فشيئا يحس الاخ وجود أخيه.. و يطيل التحديق في العزيز الذي يحدثه عن طفولته. والذي يصدقه بما يقول و يرى الاخ كيف رحم الله يوسف، وأخذ بيده من الجب والسجن، وحماه وأفضل عليه علما وحكمة و يوصيه بكتمان أمره، حتى يبلغ الكتاب أجله مع اخوته، ولعله ـــ والله أعلم ـــ قد اطلع اخاه على تدبيره، لئلا يصدم مرة أخرى، وليكون، في هدوء، يرى به رد فعل اخوته.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

يودع الاخوة العزيز، ولا يعرف حقيقة التدبير الا أخوه، و يستقبلون المشرق في رحلتهم، و يفجؤهم نداء: أيتها العير انكم لسارقون. وفي استفهام عاجل يختلط فيه القول بالحركة، كما يمثله قول الله تعالى **«قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون»**؟ وفي جهل بالشيء المفقود يسمعون: نفقد صواع الملك.

ان أمامهم بابا مفتوحا لوغلب عليهم التعقل، وهو قول فتى يوسف ولمن جاء به حمل بعير، وانا به زعيم.

ماذا على الاخوة لو توقفوا وقالوا: دعونا نبحث عنه بانفسنا، في

كـل مـتـاعـنـا . وسنفتح المتاع بأيدينا ، لعل خطأ أو أن الصواع وضعه صاحب الكيل دون أن يشعر. ولكن لا بأس بالتأكد . ماذا عليهم لو تـقـبـلوا الامر في هدوء ، وتولوا البحث ، واستطاعوا بهذا أن ينالوا حمل بعير. . ؟

الـذي حـدث أن غـلـب عليهم الغضب لانفسهم ، والدفاع عنها ، وأصبحت مسألة «كرامة» اذا استخدمنا اصطلاحا معاصرا .

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ

و بـهذا تحول الأمر الى اتهام ودفاع عن أمر مغلق . ألا يذكرون ما كـان مـن يـوسـف في مرة سابقة ، عندما رد لهم البضاعة مع الكيل ، وعـادوا بـالكيل والبضاعة معا ؟ ألم يقولوا لابيهم **«يا أبانا مانبغي هـذه بـضـاعـتـنـا ردت الـيـنـا ، ونمير أهلنا ونحفظ اخانا ، ونـزداد كـيل بعير، ذلك كيل يسير»** وهذه مرة ثانية يستطيعون فيها زيـادة كـيـل بـعير لـو تـأنـوا وذكـروا أن هـذه كتلك، أو تقرب منها، وكيف قبلوا الاولى وتوقفوا في الثانية؟

و يـسـتـمـر الحـوار الحـاد الغاضب بين الاخوة ومؤذن يوسف :

قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾

قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ

ونحس شدة الحوار، والغضب المتطاير في كلمات : كاذبين، ظالمين، بعد أن ترددت كلمات «نفسد في الارض» و «ماكنا سارقين».

أخرج اخوة يوسف الامر من ايديهم، وقد كان فيها، وتركوا فتيان يوسف يفتحون متاعهم، ووقفوا ينظرون. ولعل يوسف أحس ما هم فيه من حدة واندفاع، لا زال ينأى بهم عن الحكمة.

وهذا الاندفاع قادهم الى سلسلة من الاخطاء، وصلت بهم الى الرضى بأسر من يوجد الصواع في متاعه، والى الثورة على أخيهم وعلى يوسف. وخلطوا القديم بالجديد. كل هذا و يوسف ينظر: ألم تغيرهم الايام، وتصقلهم التجارب بعد؟ يا اخوتي، كبرت أعماركم، ولم تكبر معها عقولكم.

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه، ثم استخرجها من وعاء أخيه،

﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

لفظ «كدنا ليوسف» في الآية معناه: صنعنا أو أردنا أي علمناه التدبير. والتشبيه بالكيد هنا لخفاء القصد الحقيقي حتى يستخرج يوسف من نفوسهم جوانب لا يظهرها الا مثل هذا الموقف وتوتراته. ودين الملك هنا معناه سلطان الملك وقضاؤه. و بدا من التدبير حكمة يوسف عندما نقارنها باندفاع اخوته العشرة الغضاب. هذا واخوه يشهد كيف يحرك يوسف الموقف، و يقوده، الى نهايته المرسومة.

وهذا درس في التأني والتثبت، ور بط الاحداث بعضها ببعض، ومحاولة الخروج منها بنتائج. ولقد كان من اخوة يوسف عجز عن الصعود الى مستوى التصرف السليم. وقادهم الاندفاع الاول الى اندفاع ثان، كشفوا به صحيفة لم ترد في اقوالهم للعزيز، وهي الحديث عن اخ آخر. وهذه اول اشارة ترد عن يوسف دون ذكر اسمه.

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وهذا الافتراء على يوسف وهو صغير — وهو ما حاول بعض المفسرين شرحه — يخرج بنا عن السياق الرئيسي، ولا يعدو أن يكون تهمة لا أساس لها، ومحاولة لتبرير الحادث الجديد، بأنه شبيه القديم. ومع رفع صوتهم بالافتراء على الاخوين، تغلب الحكمة على

يوسف **«فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال : انتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون»** .

وكان الافتراء على غائب ، وهو الخطأ ، الثاني بعد الاندفاع الاول ، وجاءت بعد هذا منهم محاولات .. فلننظر أمرها .

قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

ومع ان طيف يوسف مر في اذهان اخوته وهم يقولون «ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل» (يوسف آية ٧٧)
الا أن أحدا منهم لم يدرك أي ملمح أو شبه بين العزيز و يوسف. ما أدركوا شبها في صوت، ولا حركة، وجه ولا أية علامة مميزة.

لقد حاولوا استعطافه بذكر الاب الشيخ الكبير، واستعدادهم لفداء أخيهم، بعد أن ادانوه. وذكروا العزيز باحسانه السابق. ولكن كيف يأمن يوسف على أخيه، وهو مدان بالسرقة أمامهم، والقصة لم تتم فصولا؟ هم لم يشهدوا من العزيز الا الاحسان. ولكن الامر الآن وصل الى الادانة. ومع تحديد التهمة، لا يمكن أن ننتقل من مدان الى بريء، «**قال: معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون**».

كثيرا ماكانت تأتي هذه الآية الى خاطري، و يتحرك بها لساني، عند معاناة أو شهود مظالم، يؤخذ فيها البريء بالمتهم، والاب بالابن والوالد بأبيه، والاخ بأخيه. وفي كثير من اقطار العالم الثالث على امتداده، يجري أخذ الرهائن من الاقارب حتى يتقدم

الفرد الطلوب الى التحقيق، وهو باب اذا دخله لا يعرف متى يخرج منه.

ان هذا التمييز الدقيق في الآية الكريمة بين من وجدوا متاعهم عنده، و بين اخوته، وهم اقرب الناس اليه، يوضح صورة دقيقة وكريمة، من صور العدل والحق، وكانت درسا لاخوته خاصة وللناس عامة.

وليعد اخوة يوسف باذهانهم الى الماضي، وهم يلقون اخاهم في غيابة الجب: لماذا؟ و بأي ذنب؟ انه متهم بانه أحب الى ابيهم منهم وهم عصبة. وفي هذا يدينون الاب «ان ابانا لفي ضلال مبين و يطرحون الاخ في الجب.

و يبدو أنهم الحوا على يوسف ولم يجدوا منه الا الاصرار، يقول الله تعالى **«فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا»**.

فرغ بعضهم الى بعض اعتزلوا الناس، وأخذوا يتدبرون أمرهم و يتناجون، وما أبلغ قوله تعالى **«فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا»** قاربوا اليأس، وفي النفوس شعاع أمل، وهاهم يديرون الحوار بينهم في عزلة عن الناس.

ولعلهم استعادوا ما مر بهم. هل افاقوا لانفسهم من خطأ التسرع في رد تهمة السرقة، وقد كانوا يستطيعون التخلّص منها، لوغلبوا الحكمة وقاموا بأنفسهم بالبحث وتفتيش المتاع؟ لا شك في أن هذا خطأ منهم وتسرع، قادهم الى ما هم فيه. ومن قبل غلبهم الحسد

فآذوا آباهم وأخاهم فما كسبوا في قلب الاب منزلة يوسف ولا حفظوا اخاهم .

قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

وعند هذه الآية نحصى الجوانب الايجابية في موقف اخوة يوسف . لقد كانت ذروة خطئهم أن قالوا «**ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل**» كان هذا آخر السوء منهم . ومن بعده بدأت الافاقة على مراحل .

أولاها : تذكر الاب الشيخ الكبير، والتوسل به الى العزيز .

ثانيا : عرضهم أن يأخذ العزيز أحدهم مكان أخيهم .

ثالثا : تشاورهم وتذكرهم اخطاءهم وتفريطهم في يوسف .

رابعا : بقاء كبيرهم الى جوار اخيه حتى يأذن له أبوه، أو يحكم الله له .

خامسا : قولهم لأ بيهم أن يسأل القرية التي كانوافيها والعير التي اقبلوا فيها .

وكل هذه الخمس تخالف ما كانوا عليه من قبل :

أولاها : أنهم لم يرحموا الشيخ الكبير عندما أخذوا ولده .

ثانيا : لم يبد من أي منهم أي استعداد لفداء يوسف .

ثالثا : كان تشاورهم على الاثم والعدوان .

رابعا : جاؤا اباهم عشاء يبكون .

خامسا : واعدوا الادلة المزيفة قطعوا الطريق على أبيهم ، فلا يستطيع اي تحقيق . ذئب أكل يوسف ، وهذا قميصه ، وانتهى الامر .

فهذه خمس تقابل خمسا ، ولا يحتاج الموقف الجديد الى اصطناع البكاء والكذب ، والدم الكذب .. وأكدوا صدقهم بقولهم « وانا لصادقون » .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

لـم يـصـرح يـعـقـوب بالامر الذي سوله لهم أنفسهم . ومن سياق القصة تبدو الاخطاء التي وقعوا فيها . وأنهم لو أحسنوا التصرف لاستطاعوا العودة جميعا ولكنهم هذه المرة عادوا وقد بقى منهم اثنان : أحدهما في دين الملك ، والثاني ينتظر امر أبيه ، أو حكم الله له . و يعقوب بهذا فقد الاثنين والثالث ينتظر .

ومع هذا لا زالت الرؤيا حية في نفس يعقوب : رؤيا يوسف . **«اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين»** ستجتمع الكواكب والشمس والقمر . سيلتقى الابوان والابناء جميعا في مشهد يوسف . والآن يرى ولده الثاني في دين الملك ، والثالث قريب منه . فهل يكون اللقاء في مصر ؟ هل قاربت الرؤيا أن تتحقق ؟ ان محورها يوسف والابناء قليلا قليلا ينتقلون الى بيت العزيز وقريبا منه ؟

فدعاء يعقوب **«عسى الله ان يأتيني بهم جميعا»** نابع من ايمان عميق بوعد الله **«انه هو العليم الحكيم»**. وقلب يعقوب موزع بين أمل طال عليه الامد ، وحزن مقيم ، ولا تعارض بين ايمان وحزن :

عندما توفى ابراهيم آخر ولد اسعد الله به بيت النبوة ، بكى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقال : تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، والله يا ابراهيم انا بك لمحزونون (١) . ووضع المصطفى عليه الصلاة والسلام بهذا الخط الفاصل بين المشروع من دمعة العين وحزن القلب ، و بين قول ما لا يرضى عنه الرب تبارك وتعالى .

في يعقوب كانت تتلاقى احزان الابوة ، بتبشيرات النبوة . والسنوات تمر و يوسف يمر في مراحل التكوين ، والابتلاء والسجن ،

(١) جامع الأصول ١٢ : ١٠ حديث رقم ٨٧٣٩

والادارة، والاب لا يدري عن ولده شيئا ولا يفقد يعقوب الامل في وعد الله. و يشتد به الالم وتبيض عيناه من الحزن، مرة يكتمه، ومرة يبوح به، فاذا باح به فهو البث، واذا كتمه فهو الحزن المكظوم.

واولاده يقسمون «تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين». وكأن يوسف مسئول عن اتلاف صحة ابيه أو هلاكه. وكأنه في حضوره كان مثار حسدهم، وفي غيابه مثار شكواهم من أبيهم. بل ان يوسف في غيابه — وفي هذا السياق — كان أقوى من حضوره. ففي حضوره كان الحب مقسما بينه و بين أخوته. أما في غيابه فالحزن هو المسيطر على البيت، و به حرم يعقوب أبناءه — وهو مضطر — من اظهار الحب أو التعبير عنه. وهو — مرة بعد مرة — يدينهم بأن نفوسهم سولت لهم أمرا. و يلجأ في حزنه الى الصبر الجميل، والى دعاء الله تعالى أن يأتيه بابنائه جميعا. ويختم الآية بقوله: **«وأعلم من الله ما لا تعلمون»**.

يقول الامام الفخر الرازى في بيان حزن يعقوب على يوسف:

وأعلم أن أشرف أعضاء الانسان هذه الثلاثة، فبين تعالى انها كانت غريقة في الغم، فاللسان كان مشغولا بقوله: يا أسفاه، والعين بالبكاء والبياض، والقلب الغم الشديد، الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شد، ولا يمكن خروج الماء منه (يقول الله: **فهو كظيم**) «والكاظم هو الممسك على حزنه فلا يظهره».

والانسان اذا بث شكواه الى الله كان على هدى الصالحين..

وكان من دعاء المصطفى عليه الصلاة والسلام **«اللهم أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء لا يرفع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع (١)»**.

---

(١) جامع الأصول ٥: ١٢٣ حديث رقم ٢٣٨٤

يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ

يخاطب يعقوب اولاده بقوله «يابني». وهذه هي المرة الثانية التي يرد فيها هذا الخطاب في السورة. كانت الاولى قول يعقوب «يابني لا تدخلوا من أبواب متفرقة» وكانت في مقام النصح لهم.. وشفعها بقوله «وما أغني عنكم من الله من شيء أن الحكم الا لله» ورد فيها الحكم لله، وعليه التوكل.

وفي هذه المرة يأتي خطابهم بوصف «البنوة» ترفيقا وتلطفا ولكنه يشفعه بأمر ونهى.

أما الأمر فقوله: فتحسسوا من يوسف وأخيه.

وأما النهي فقوله: ولا تيأسوا من روح الله.

و يلي النهي تعليل: انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون.

ومعنى تحسسوا: اشتدوا في الطلب والتعرف، وهوأعلم من التجسس فهو التطلب مع اختفاء وتستر.

بعبارة أخرى، اسلكوا كل سبيل للبحث عن يوسف وأخيه، ولا تيأسوا من روح الله. والروح فى الاصل: النفس واستعير لكشف

الكرب ، لأن الكرب والهم يطلق عليها الغم ، وضيق التنفس والتروح على ضد ذلك ومنه قولهم « تنفس الصباح اذا زالت ظلمة الليل » .

لا تيأسوا من روح الله .. لا تيأسوا من عون الله أن يكشف الغمة والكرب و يذهب عنا ضيق الصدر بغياب يوسف وأخيه . ذلك لأن اليأس قرين الكفر، والثقة فى الله قرينة الايمان .

ولنربط هذا بالاية : **« انما أشكوبثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون »** . فهناك علم من الله ، يؤكد فى نفس يعقوب لقاءه مع يوسف وأخيه . وتحققا لرؤياه وان طال الامد .

وتأتي الآيات تختصر الزمان والمكان ، وتمر على الرحلة وعلى دخول المدينة ، وتنقلنا مباشرة الى لقاء بين العزيز والاخوة .. فلنسمع ما قالوا :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)

وفى هذا الحديث استمرار لاسلوب التلطف الذى كان آخر قولهم له فى اللقاء السابق : « يأيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، انا نراك من المحسنين » .

وحديثهم الجديد أشد تلطفا .

لقد وصفوا فى جملة قصيرة ، الوضع الاقتصادي والاجتماعي والنفسي الذى وصلوا اليه بين الرحلتين : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر .. و يشمل هذا الأب الشيخ ، الكبير والنساء ، والاطفال والعشيرة .

ثم ذكروا بعد هذا البرهان العلمي على سوء وضعهم الاقتصادي فى قولهم « وجئنا ببضاعة مزجاة » والمزجاة : القليلة التى لا يرغب فيها فكأن صاحبها يزجيها ، أي يدفعها بكلفة ليقبلها من دفعت اليه . بضاعة نحن نعرف أنها قليلة القدر . ونعترف بذلك . و يبدو هنا جانب الصدق ، بعد أن ظهر جانب الضر و بعد أن ذكروا الامرين (الضر وصفة البضاعة) طلبوا أمرين :

الأول : أوف لنا الكيل .

الثاني : تصدق علينا .

وختموا الامر بدعاء وتوجه الى الله « ان الله يجزي المتصدقين » وتختلف هذه عن قولهم السابق « ان نراك من المحسنين » حتى الحديث عن نظرتهم الى العزيز اختفى فى الدعاء له .

أوف لنا الكيل : أي تقبل منا البضاعة المزجاة ، وأفضل علينا ، فقد مسنا وأهلنا الضر .

تصدق علينا : عندك أخونا الذى أخذته فى دين الملك . ولا نستطيع أن نقدم عنه عوضا ، فقد قلت من قبل « معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده » . لن نحدثك أيها العزيز ، من مدخل

الاستبدال ، ولا أن تأخذ أحدنا مكانه ، ولكنا نحدثك أيها العزيز من مدخل التصدق ، ونكل فى هذا ثوابك الى الله تعالى ، فنحن عنه عاجزون .

كان الحديث يحمل كل معاني التوبة الى الله والرجوع اليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم الى حول الله وقوته . وما كان من الممكن أن يسير يوسف باعداد اخواته للمشهد الكبير أكثر من ذلك .

أحس يوسف أن نفوسهم تطهرت ، وأنهم الآن يشربون صافيا من معين أبيهم : النبي الصابر الحزين ، المؤمن بوعد الله .. فماذا صنع يوسف .. ؟

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾

و ينظر الاخوة بعضهم الى بعض ، كيف جاء ذكر يوسف على لسان العزيز .. ؟ وبهذا التحديد : ما فعلتم بيوسف واخيه ؟ لقد كان آخر ما قال أبوهم « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » . جملة قيلت فى فلسطين من الأب يسمعون قريبا منها ، أول وصولهم مصر ؟ « يوسف وأخيه » هناك ، و« يوسف وأخيه » هنا ؟ ومن قبل هذا قول يعقوب « وأعلم من الله ما لا تعلمون » وهنا قول العزيز « اذ أنتم جاهلون » .. ؟

« قالوا : أءنك لأنت يوسف » ؟ استفهام بين اليقين والشك . « قال : أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا » ورد الفضل

فى ذلك الى الله سبحانه ثم انتقل الى قاعدة عامة هى سبب الخير على امتداد الزمان والمكان .

إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

والرباط وثيق بين التقوى والصبر، وهما جناحا الاحسان . وقد جمع الله سبحانه بين التقوى والصبر فى مثل قوله :

۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

(آل عمران : ١٨٦)

والمنقول عن النبي عليه الصلاة والسلام فى احتماله وعفوه عمن كان يؤذيه ، كثير، كما قال الله تعالى :

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟

﴿وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾

(البقرة: ١٠٩) .

والكمال فى هذا الباب ، بين مقام الصبر والحلم ، ودفع الأذى ، هو حال نبينا صلى الله عليه وسلم ، كما فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له ، ولا امرأة ولا دابة ، ولا شيئا قط ، الا أن يجاهد فى سبيل الله . ولا نيل منه فانتقم لنفسه ، الا أن تنتهك محارم الله . فاذا انتهكت محارم الله ، لم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتقم لله » .

وفى قصة يوسف كان الاذى من اخوته ، ومن امرأة العزيز ، ومن النسوة . وقد تابت امرأة العزيز والنسوة ، ورجعن الى الله ، وهؤلاء اخوته أمامه الآن .

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾

وفى موقف التوبة والعفو:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾

أي لا لوم عليكم ولا توبيخ .

وتلاقي الاخوة فى ظل المغفرة والصفح الجميل .

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

هذا في مقام المعجزة من يوسف: أن يحملوا معهم قميصه الى أبيه، ليعود اليه البصر، دون اشارة الى ماض حزين.

لقد حملوا من قبل الى أبيهم قميص يوسف ممزقا ملطخا بدم كذب. وحملوا معه الى أبيهم الحزن المقيم، والبكاء الطويل سنين، على ولده الغائب. فاحملوا يا أخوتي هذه المرة قميص البشرى. ان الحسنات يذهبن السيئات.

بعض الذين حاولوا أن ينظروا الى الامر نظرة علمية فسروا بياض العين «بالماء الابيض» الذي يغيم عدسة العين، وأن في ازالته عودة البصر الى العين. وأن عامل المفاجأة والبشرى قد تسقط معه الغشاوة عن العين. فلندع الذين يحاولون أن يقولوا في التفسير الطبي قولا، لنقف عند حدود الآية، وهي أن يوسف بعد كل هذه السنوات الطوال ــ والآيات لا تذكر أن يوسف علم من اخوته ما أصاب أباه، ولكن تحس من الآية ــ وكلها بالضمائر المتصلة ــ شدة حنين يوسف الى أبيه **«اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا، وأتوني بأهلكم اجمعين»** الأب ابي والأهل أهلكم، لم أعرفهم بعد، ولم ألقهم. هذا أبي الذي تركته مجبرا غير مختار والأهل

أنتم أدرى بهم، نساؤكم، أولادكم، عشيرتكم.

و ينبئهم يوسف بما يحدث عند القاء القميص على وجه أبيه. وتتوالى المعجزات والبشريات.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

وما تكاد القافلة تتحرك شرقا، والجديد فيها قميص يوسف، حتى يحس يعقوب ريح يوسف، وما يحسها أحد غيره. كان واثقا أنه وحده يجدها، فاستدرك قائلا « لولا أن تفندون» والفند: اختلال العقل من الخرف.. قالوا: تالله انك لفي ضلالك القديم».

كان هذا القول من أهله غير اولاده. فهؤلاء في طريقهم اليه. والاعجاز في أمرين: عودة الابناء، وريح يوسف. والضلال: البعد عن الطريق الموصلة والقديم هنا لطول طلب يوسف، رغم مرور السنين. وفي خطاب أهله له، خشونة واضحة منافية لحسن القول، الذي ينبغي أن يقابل به قلب جريح. وممن؟ أهله. وهم أدرى الناس بأنه نبى، وهو الذي أحس ريح يوسف.

وفي الآية جانب بلاغي: فجواب « لولا» محذوف، دل عليه

التـأكيـد، أي لولا أن تـفندوني لتحققتم ذلك. وكأنه يدعوهم الى الصبر الجميل. وستأتي الايام بالخير من عند الله.

و يأتـي الـعـطف عليها بالفاء مرتين.. ذلك لأن الاخوة أرسلوا أحدهم مسرعا الى أبيهم. هذا هو البشير الذي يحمل القميص، «فلما أن جاء البـشير القاه على وجهة فارتد بصيرا» و يرد يعقوب الفضل والعلم كله الى الله.

قال: ألم أقل لكم؟ اني اعلـم من الله ما لا تعلمون. ألم أقل لكم: اني لاجد ريح يوسف. ومن قبل قلت لكم: اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون» ذلك من علم الله الذي افاضه على. اني أعلم من الله ما لا تعلمون.

وفي قراءتك لهذه الآيات تحس الفارق الكبير بين أدب النبوة الذي تمثل في يعقوب و يوسف، والفجوة والخشونة من الابناء والأهل. وقد تولى يوسف أمر اخوته، أو النصيب الأكبر في اعادتهم الى طريق الخير، وتولى يعقوب بعض أمر أهله وولده. وكان بينهما — على البعد — ودون لقاء واتفاق، تعاون على التقوى **«أنه من يتق و يصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين»**.

وجاء الابناء أباهم تائبين مستغفرين، بعد أن سمعوا من يوسف قوله، **«لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»**.

و بين الموقفين فارق:

الاول : امام أخيهم ، وفيه اعترفوا بالخطأ ، ولا تزال المقارنة قائمة في نفوسهم **«تالله لقد آثرك الله علينا»** كأن الامر صراع أو مباراة فاز فيها يوسف. نعم ، نحن اخوة ، وكانت القضية أنك أحب الى ابينا منا ونحن عصبة ، والآن نعترف أن التفضيل ليس من الاب وحده ، ولكنه فوق هذا من الله تبارك وتعالى. ولم يطلبوا من أخيهم استغفارا لهم ، بل كان منه القول بعد الصفح **«يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»**.

الموقف الثاني : امام الوالد وقد تكشفت كل ابعاد القضية.

قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾

فطلبوا من أبيهم الاستغفار لذنوبهم.

فيكون رد الاب الرحيم :

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

أي انه سيداوم على الاستغفار لهم. وفي المداومة على الاستغفار اشعار بعظمة الله تعالى ، واليه يرجع الامر كله ، و بكبر الذنوب أو الذنوب التي اقترفوها ، وما تركته في بيت يعقوب سنين.

ومرة أخرى تنقلنا السورة الى مشهد جديد ، و يطوي فيه الزمان والمكان معا. بيت يعقوب يجمع متاعه : الصغار والكبار. الشيخ الكبير يرى افقا جديدا من الدنيا ، وقد عاد اليه بصره. وعن قريب

يرى يوسف الابن والنبي الحبيب. وفضل يوسف قد عم أهله جميعا، قبل أن يحضروا اليه.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞

ومرة ثانية نقرأ **«آوى اليه ابويه»** وفي موقف سابق «آوى اليه أخاه»، فكان يوسف خير مأوى لاهله، بعد حياة القلق، وخوف المجاعة، والتعرض لاخطارها في البدو، بعد أن تقدمت سن يعقوب، فلم تسمح له بالتنقل السهل بين ارجاء البادية، بعد هذا كله، يجد يوسف واخوته وأهله الامان والاستقرار في مصر، و يرد يوسف هذا كله الى مشيئة الله تعالى.

«ورفع ابويه على العرش» بعد ترحيب بدخول مصر وايواء تطمئن به النفس، وتروي به بعض الشوق القديم.

ومن الواجب ينتقل يوسف الى تكريم الابوين برفعها على

العرش، والفعل هنا مسند الى يوسف كأنه الذي قام به أو أمر به. والاول أقرب الى خلقه أخذ بيد أبيه وأمه، ورفعها على العرش ولهذا كان للابوين المكان العلى في اللقاء، والاخوة مع يوسف دون مكان الابوين.

و ينظر يعقوب النبي، الى يوسف النبي، الذي أكرمه الله بأن نصره في كل الاختبارات التي مر بها طوال هذه السنين. من ادبار الدنيا واقبالها، ومن الحياة في ضيق الجب والسجن الى سعة القصر، ومن مقامه في الجب دون قميص الى مسئول عن توزيع الكيل على قطر كبير، والبر بمن حوله و يسجد الابوان، و يسجد الاخوة ليوسف، ولعل السجود ــ احتراما ــ كان في شعائرهم. وتتحقق الرؤيا **«وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا»**.

رؤيا كانت في فلسطين، وكان تحققها في مصر. وبين الرؤيا وتعبيرها كل هذه السنين. رؤيا كانت في البادية، وتحققها في قصر عزيز، وبينها هذه التجارب العميقة.

و يتكلم يوسف معددا فضل الله عليه، دون أن يذكر احدا بسوء.. ما ذكر اخوته.. ولا امرأة العزيز، ولا النسوة. اللسان العف، لسان النبوة:

وَقَدْ أَحْسَنَ بِيَ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

۞ رَبِّ
قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

هذا الثناء والدعاء مرتبط ارتباطا وثيقا بما قاله يوسف بعد أن « رفع أبو يه على العرش وخروا له سجدا » .

قال : يا أبت هذا تأو يل رؤ ياي من قبل قد جعلها ربي حقا .

الرؤ يا ليست ارادية . صورة شاهدها يوسف فى منامه تأتي كأنها الوجه الآخر لما رآه أبوه ابراهيم من قبل :

يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

(الصافات : ١٠٢)

لم يكن اسماعيل صغير السن مسلوب الارادة وانما بلغ السعي وأصبح قادرا على الكسب . وله ــ لو أراد ــ أن يتوقف . ولكنه قال : يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني ان شاء الله من الصابر ين . فالمحنة كانت لكل من الأب والابن .

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

طريق طويل بين الرؤيا الاولى بكل ما تحمل من محنة ، لن يعن عليها الا اسلام النفس لله ، ونجاة بعد تصديق الرؤيا وفداء . ثم تأتي الرؤيا الثانية : ليست والدا رأى نفسه يذبح ولده وانما والد وأم واخوة ، كواكب فى سماء ، تسجد لواحد منها .

يوسف رأى ذلك فى المنام وهو صغير، ولم يكن وقتئذ قادرا على تعبيرها ، وحملها الى أبيه وقصها عليه . وهو الذى عبرها ، ونهاه عن قصها على اخوته ، فيكيدوا له كيدا « ان الشيطان للانسان عدومبين » .

ولقد ظلت الرؤيا سنين ، تحمل فيها يعقوب و يوسف ، صنوفا من الحزن والمحن ، تحملها يعقوب وهو فى مكانه ، يكظمها تارة و يبثها تارة ، تفيض بها عينيه دمعا ، و يتحرك بها لسانه دعاء وأسفا

علـى يـوسـف ، ويجـزع لهـا القلب . وحوله من الاهل من يصف الألم الكبير، بالضلال القديم ، ويحذره طول الحزن ، فغايته الهلاك .

و يـوسف يمر من تجر بة الى تجر بة طاهرا كالشعاع ، والرؤ يا حق القلب ، الذى ينتظر حق العين والمشاهدة .

ولـيـس فى القصة ما يبين أن يوسف ، عند لقائه بأبو يه واخوته ، طـلـب مـن أحـدهـم أي أمـر يـتعلق بالرؤ يا القديمة ، ولا يعرف متى تـتـحـقق ، ولا كيف تتحقق . تقول الآية : « ورفع أبو يه على العرش وخروا له سجدا » .

وأقـول ، والله أعـلم : كان من يوسف الاحترام الكامل لأبو يه ، فـرفـعهما على العرش ، واخوته من حوله . أعلى مكان فى القاعة كان فـيـه الأبـوان ، وتـعـلقت الانظار بالأب فى مكانه هذا ، وقد عاد اليه بـصـره . يراهم و يرونه ، فاذا بالأب يسجد فى هذا المشهد فيسجدون معه ، و يرى يوسف تعبير الرؤ يا أمامه .

انـه سـجـود الـشـاكـر ين : أن جمعهم الله بعد فرقة ، وأغناهم بعد فقر، وهدى الاخوة بعد ضلال .

الـذى حـرك الـموقـف هـنـا ، هـو يعقوب عليه السلام ، وما طلب يـوسـف ــ وحشاه أن يطلب ــ من أحد أن يسجد ، وانما كانت هذه هـى المرة الاولى التى يلتقي فيها الابناء جميعا مع الوالدين ، فى مشهد واحد ، بعد مرور السنين .

ــ كان الموقف طاعة لله سبحانه .. هذا من يعقوب .

ـــ وكان الموقف طاعة لله سبحانه ، واتباعا ، لامامة يعقوب وهذا من أولاده .

تتعلق الانظار بالشيخ الكبير ، وهو على العرش الذى رفعه اليه أصغر أبنائه ، وأقربهم الى الله ، وأضوأ الكواكب فى هذا البيت ، وأشدهم تحملا وصبرا واستقامة

ماذا يصنع الأب النبي بعد آلام السنين .. ؟ سجود لله تعالى فى حضرة الابن ، وهو مدار القصة كلها .

ولنذكر أن الموقف موقف فيه نبي والد ، ونبي ابن . والاثنان على قدم الايمان ، طاعة لله ، وامتثالا لأوامره . لم يتكلم يعقوب ، كان منه ومن البيت السجود ، تحقيقا لرؤيا هو الذى عبرها . وكان من يوسف القول : « هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا » .

وفى هذا الموقف يحس اخوته بما أساءوا فى حق يوسف ، وهو الآن لهم ظل وبيت ومأوى ، وطعام وشراب ومكانة .

وتتعلق الانظار به ماذا هو قائل لأبيه ولاخوته الآن .. ؟ انه يرد الفضل لله : « وقد أحسن بي » ويعرض بعض جوانب الاحسان بقوله : « اذ أخرجني من السجن » لم يكن لاخوته يد فى ذلك .. فهذه تجربة هم بعيدون عنها ثم يقول : « وجاء بكم من البدو . الله سبحانه هو الذى جاء بكم . هذه ارادته وهذا قدره . أما الذى فرق بيننا ـــ فيقول عنه ـــ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي » هذا نزغ الشيطان . وقد مر وانتهى . وفى سرعة يعود الى الثناء على الله : « ان ربي لطيف لما يشاء » ربي الذى رباني ورعاني فى كل

أمري ، ولطف بي « انه هو العليم الحكيم » .

وبعد خطابه لوالده ، وحديثه عن اخوته ، وأخذه فى الثناء عَلى ربه يتوجه الى الله داعيا ، دعاء هو خلاصة القصة كلها .

رَبِّ

قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

وفي الدعاء ثمانية عناصر يمكن أن نراها أزواجا ، ويمكن أن نراها شريحتين كبيرتين .. ولنبدأ بالتقسيم الثماني :

أولا : رب قد آتيتني من الملك .

ثانيا : وعلمتني من تأو يل الاحاديث .

ثالثا : فاطر السموات .

رابعا : والارض .

خامسا : أنت وليي فى الدنيا .

سادسا : والآخرة .

سابعا : توفني مسلما .

ثامنا : وألحقني بالصالحين .

ــ رب قد آتيتني من الملك . والملك فى هذه الدنيا . فى هذه

الارض التى نعيش فيها وتختبرنا فيها : أنشكر أم نكفر.

ــ وعلمتني من تأو يل الاحاديث: وهذا من فيضك العلوي. من وحيك، ينزل على القلب من الأفق الأعلى.

وكأن يوسف ــ عليه السلام ــ فى دعائه هذا بين أفقين من آفاق الاكرام: الملك وهذا دنيوي أرضي، وتأو يل الاحاديث وهذا علوي سماوي، والامران ثناء على الله.

ننتقل خطوة الى الثنائية الثانية : فاطر السماوات والارض .. وهنا نجد ذكر السماوات والارض، والسماء مكان تأو يل الاحاديث، وفى الارض كان الملك، وأنت يا رب آتيتني من الملك وعلمتني من تأو يل الاحاديث. أما ملكك وعلمك فأنت المالك. لك الملك كله أنت العليم لك العلم كله، ومنها تفيض على عبادك.

وننتقل خطوة الى الثنائية الثالثة : أنت وليي فى الدنيا والآخرة. فى الدنيا : وكان فيها ما آتيتني من الملك وعلمتني من تأو يل الاحاديث. فى هذه الدنيا أنت وليي. وفى الآخرة، وهى دار الجزاء، أنت وليي.

وهذه الثنائيات الثلاث ومجموعها ستة عناصر، كلها ثناء على الله تبارك وتعالى واقرار بفضله.

والآن : أيها النبي الكريم، ما دعاؤك .. ؟ لقد كان هذا كله ثناء على الله، ارفع دعاءك الى ربك. فيناجي يوسف ربه قائلا :

« توفني مسلما وألحقني بالصالحين ».

وهذه الثنائية الرابعة والاخيرة فى الدعاء.

أن يموت على الاسلام : وهذا وداع الدنيا ، وألحقني بالصالحين ، وهذه صحبة الآخرة ، مع أبيه ابراهيم واسحق و يعقوب ، ومن شاء الله أن يحمل مسئولية النبوة ، ومن معهم من رفقةالصالحين .

يقول الامام الفخر الرازي فى تفسيره خاتمة الدعاء:

أحسن ما قيل فيه : أن كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاسلام ، و يرضى بقضاء الله وقدره . و يكون مطمئن النفس منشرح الصدر، منفتح القلب فى هذا الباب ، وهذه الحالة ، زائدة على الاسلام ، الذى هوضد الكفر فالمطلوب هاهنا هوالاسلام بهذا المعنى .

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

ولنذكر أن سورة يوسف مكية ، وأن نزولها فى نسق يبدأ من سورة الاسراء الى يونس الى هود فى الفترة بين الاسراء والهجرة ، وهى التى اشتد فيها أذى قريش ، وأطمعها فى الاسلام أن ثقيفا لم تستجب له ، وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف وقد ردته ردا غير جميل .

و يبدو التشابه القوي بين هذه المرحلة من حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما كان من اخوة يوسف .. ان القاء يوسف فى غيابة الجب وتدبير قتل المصطفى عليه الصلاة والسلام ينبعان من مصدر واحد ، هو الحسد والجحود .

وكان التدبير فى الامرين سرا ، وكان اجماعا : اجماع اخوة ، واجماع قبائل ، وكان مكرا خفيا . فى أولهما : يضيع به يوسف فى غيابة الجب ، أو بعض السيارة ، وفى الثاني يتفرق به دم الرسول عليه الصلاة والسلام بين القبائل . وأصبح الامران قرآن يتلى ، و بشر يات خير ، بعد اختبارات من الله تعالى .

ونحن نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أميا ، لا يقرأ

ولا يكتب . ولقد سألته قريش عن قصة يوسف تحديا ، وما كان للرسول من علم بها .

ولكن : لننظر الى الامر نظرة تاريخية واحصائية ، كان أول ذكر ليوسف فى القرآن فى سورة غافر ، وذلك فى دفاع مؤمن آل فرعون عن موسى :

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا (غافر : ٣٤)

وسورة غافر — أو المؤمن — من السور المبدوءة ب (حم) وهى سبع : أولها سورة غافر وآخرها سورة الاحقاف . وكان نزولها فى العهد المكي الاوسط ، الذى شهد الهجرة الى الحبشة ، واشتد الأذى بالمسلمين . وتلتقي السور السبع فى أنها تدعو المؤمنين الى الثبات وتعدهم بنصر الله ، وتنذر الكافرين ، وتضرب الامثال مما مر بالانبياء السابقين ، كيف نصرهم الله على أعدائهم . و يبدو التركيز فى الحواميم السبع ، على هزيمة الكفر ، ونصرة الحق وفيها دعوة أهل الكفر الى ترك العناد والجحود ، قبول الايمان والاستجابة لله ، وما أنزل من الحق .

هكذا جاء ذكر يوسف فى مقطع من مقاطع سورة غافر ، أول ما جاء فى القرآن ، ومضت السنون فى مكة ومعها مراحل جديدة من الصراع بين الايمان والشرك ، ثم جاء تحدي قريش رسول الله عليه

الصلاة والسلام ، أن يخبرهم عن أمر يوسف وهجرته مع أهله الى مصر . وفى معرفة هذا التحدي استعانت قريش باليهود ، وكانوا على صلة بهم فى تجارتهم الى الشام .

وأنزل الله تعالى سورة يوسف ، بكل هذه التفاصيل ، التى تشمل حوارا بين الاخوة ، لم يحضره حتى أبوهم ، وتآمرهم على يوسف ، ومسار القصة من فلسطين الى مصر ، حتى انتهت الى تحقق رؤ يا يوسف . وأسبغ الله عليه من فضله جزاء احسانه وصبره ، واستقامته على أمر الله . كان النصر فى صف يوسف وكان وحيدا فى صف الحق والايمان وأمامه اخوته بكل مكرهم وقسوة قلوبهم ، حتى على أبيهم النبي الشيخ الكبير.

وجاء اسم يوسف فى القصة صريحا خمسا وعشرين مرة ، والسورة كلها احدى عشرة ومائة آية .

أما الذكر الثالث ليوسف .. ففى القرآن المكي أيضا فى سورة الانعام وكان نزولها بعد سورة يوسف وذلك فى قوله تعالى ، عن ابراهيم وذريته :

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾

يبدو من هذا أن سورة يوسف ــ بكل تفاصيلها ــ تستغرق

القصة ، وما نزل عنها شيء من القرآن في العهد المدني . و يبدو أيضا جانب من تفسير قوله تعالى تعقيبا مباشرا على القصة بعد دعاء يوسف :

تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

ثم يعد الله رسوله لتقبل موقف الصدود عن الحق ، الذى قد يلقاه من قومه ، أو من كثير منهم فيقول له :

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

ولقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الجحود من قومه ، ونذكر فيما نزل من القرآن بمكة قول الله مخاطبا رسوله :

طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣)

(طه : ١-٣)

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)

(الغاشية : ٢١-٢٢)

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

(الكهف : ٦)

ولقد وصف الله تعالى أصحاب اليمين بأنهم :

ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾

(الواقعة : ٣٨-٣٩)

ثم بين القرآن الكريم أن الرسول لا يأخذ أجرا على دعوته الى الله و يقول :

وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

وهذا المعنى كثير الورود فى القرآن الكريم ، وفى أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام .

يقول الله تعالى فى خواتم سورة سبأ :

۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ (سبأ : ٤٦–٤٧)

وهنا سؤال مطروح : اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسأل أجرا على دعوته الى الله ، فما مصادر المال الذى كان ينفق منه .. ؟

فى مكة كان المصدر الرئيسي الذى حمل مسئولية الانفاق هو مال أمنا الكبرى خديجة رضي الله عنها وأرضاها . ولقد ظل النبي عليه الصلاة والسلام يعمل فى هذا المال قبل البعثة حتى فرغ للدعوة بعد أن جاءه الوحي ، وهى الفترة الممتدة من سن الخامسة والعشرين — وقبلها بسنين قليلة — الى سن الأربعين .

وبعد قيام دولة الاسلام فى المدينة ، أنزل الله سهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى الانفال والغنائم فقال تعالى :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ (الانفال : ١)

ويقول تعالى :

۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ

وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

(الانفال : ٤١)

هذا الى جانب ما كان يهديه اليه أصحابه .

من ناحية أخرى : كان المصطفى عليه الصلاة والسلام أجود من الريح المرسلة ، وكان أجود ما يكون فى رمضان .

وللنظر أحاديث مما جاء عن حياته اليومية ، يرويها أزواجه وأهل بيته وهم أقرب الناس اليه :

عن عائشة رضي الله عنها « ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ، من طعام البر ثلاث ليال تباعا ، حتى قبض » . وفى أخرى « ما أكل آل محمد أكلتين فى يوم واحد الا احداهما تمر » . وفى أخرى ، كانت تقول لعروة — وهو ابن أختها أسماء ، رضي الله عنهم جميعا : « والله يا ابن أختي ان كنا لننظر الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقد فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، قال : قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الاسودان : التمر والماء ، الا أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الانصار وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون الى رسول الله من ألبانها فيسقيناه » (رواه البخاري ومسلم والترمذي) . والمنائح : أنعام ينتفع بألبانها .

وعن عائشة رضي الله عنها « توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عندي شيء يأكله ذو كبد ، الا شطر شعير فى رف لي ، فأكلت منه ، حتى طال علي فكلته ، ففني » هذه رواية البخاري .

وأختتم هذه المختارات بحديث شريف رواه الترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه :

وليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا اضاعة المال ، ولكن الزهد : أن تكون بما فى يد الله تعالى ، أوثق منك بما فى يديك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة اذا أصبت بها ، أرغب منك فيها ، لو أنها أبقيت لك .. وزاد رزين العبدري فى كتابه : لأن الله تعالى يقول :

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ (١)

(الحديد : ٢٣)

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

بعد أن بين الله تعالى : أن القرآن وحي من عنده ، به من أنباء الغيب التى لم يكن الرسول ليعرفها ــ بكل هذه التفاصيل ، و بكل هذا الصدق ــ الا وحيا .

و بعد أن بين أن الاسلام دين خالص ، لا يسأل النبي به أجرا ، مثله فى هذا كمثل من سبقه من الانبياء ، وانه ذكر للعالمين .. خاطب رسوله موضحا أخبار المكذبين من قبل ، والمكذبين الذين يحاربونه ، فقال : « وكأي من آية فى السماوات والارض يمرون عليها ، وهم عنها معرضون » .

و واضح من الآية أن الحديث عن الآيات المحسوسة ، التى تدركها العقول .

وما آيات السماء ؟ انها قسمان رئيسيان :

الأول : أجرام نراها ، أو نستطيع أن نراها ، باستخدام أجهزة معينة .. وهذا الذى نراه هو جزء محدود من مجرات جبارة تسبح فى الكون الكبير .

الثاني : نظم تتحرك بها هذه الاجرام ، ندرك بعضها بالعين

المجردة كحركة القمر والشمس وبعض الكواكب .. وصدق الله العظيم :

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

وما تراه العين من آيات السماء : أجساما ونظما ، يكفي أي انسان سوي التفكير ، ليؤمن بوجود مبدع لهذا الكون .

ولا يستطيع العلم ــ أي علم ــ أن يقوم ، اذا لم يقبل أهله ، أن الكون وما فيه ، يقوم على نظام ، وأنه ليس مجموعة من المصادفات ، أو الحقائق غير المترابطة .

ان المؤمنين والملحدين يلتقون عند وجود نظام للكون ، ويختلفون فى مصدر النظام ، يقول المؤمنون : ان الله الواحد الاحد ، الفرد الصمد . وغيرهم يقول غير ذلك .

والارض بها آياتها : آفاق الجماد من غازي وسائل وصلب ، آفاق النبات والحيوان والانسان .

وهى آفاق يقود التأمل فيها ، الى مز يد من الادراك لما يحكمها من نظم وقوانين .

ومـا أود ، ولا الوقت يسمح ، بالافاضة في هذه القوانين ، ولكني أقف عند ثلاثة منها :

الأول : نـظـام تـكـون البـلُّورات ، وهو ما تراه الاعين ، و يدرسه أبـنـاؤنـا في المدارس . كيف تحافظ البلُّورات على شكلها ، وان تباين حجـمـهـا ؟ نحـن نـقول ان الجماد لا عقل له . حسنا . ولكن كيف تـتـكـون وتـتـجـمـع هـذه البـلُّورات غير العاقلة ، وفق نظام ثابت لا يتغير . . ؟

الـثـانـي : نمـو الـنـبـات والحيوان والانسان . وفي كل منها ساعة حيـو يـة ، لا نـعـرف مـكـانـها ، يـضرب بها النبات جذوره ، و يشق الـتـربـة ، لـيـخـرج شـطـأة ، وتـتـوالى بعد هذا مراحل النمو . الفروع والاوراق والزهور والثمار . ولكل كائن منها نظامه ، ومراحل نموه ، منها ما يحسب بالايام ، وما يحسب بالشهور ، وما يحسب بالسنين . أنت أو أي انـسـان حولك : ارجع بخاطرك الى مراحل حياتك ، من وقت أن أدركت ذاتك ، وهذا النظام الداخلي الذى لا تسيطر عليه ، يحدد لك الـنـوم والـيـقـظـة ، و يقوم بكل هذه الوظائف تقسيا زمنيا ومكانيا في جـسـمـك . وقـبـل هـذا ، ومـن قبل أن تدرك ذاتك ، كيف كان النمو وأنـت جـنـين محمول في ظلمات ثلاث ؟ وكيف تكون كل جهاز من أجـهزة جسمك ؟ وكيف يتحول الغذاء الواحد ، الى عضلات وعظام وشعر وسمع و بصر . . ؟

الـثـالـث : رباط بين الانسان والكون لا يمكن الا أن يكون وحيا . . ولـنـأخـذ مـنـه نـظـام الحـج . عبادة الاسلام الجامعة . ولننظر الى الطواف : حركةارادية باتجاه معلوم ، حول نقطة مركز ية ، هي البيت

الحرام . الملحدون يقولون انها بقايا وثنية ، وانها طواف حول حجر . ولكن مع تقدم العلم ، وبالاضافة الى ما تشاهده العين ظهر أن الكون كله فى طواف مستمر. طواف كوني امتثالا لأمر الله تعالى . وأن الطواف الاختياري هو طواف الحج . الذرة تشهد فيها الالكترونات تطوف حول البروتونات . الكون الكبير تشهد فيه الكواكب السيارة تطوف حول الشموس . والاقمار تطوف حول الكواكب السيارة .. أمامك الارض والشمس والقمر آيات فى الطواف . فاذا جاء الحج متناسقا مع حركة الذرة وحركة الكون ، اذا جاء الطواف متناغما مع الكون كله ، ألا يكون هذا اعجازا ووحيا ؟ حينما ترى وحدة النظام فى الكون والعبادة ووحدة النظام فى مكونات الوجود تحس أن كل ما فى الكون يردد : أحد أحد . أحد أحد . فرد صمد . لا والد ولا ولد . رب السماء والفضاء والضياء والجمد . رب عزيز قادر وما له كفوا أحد .

من أجل ذلك ربط الاسلام بين الايمان والعلم . وجعل العقيدة داعية الى العلم . وجعل العلم طريقا الى الايمان . ودعا الانسان — كل انسان — الى التفكر فيما حوله . وما التفكير.. ؟ انه تفتح الحواس الخارجية والداخلية ، انه القدرة على الادراك والاستيعاب ، وتنظيم المعلومات والحكم عليها ، والخروج منها بقواعد فى المعرفة والسلوك والحياة .

وينهانا الاسلام أن نسير فى طريق نجهله . يقول الله تعالى :

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ

كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

(الاسراء : ٣٦) .

السمع والبصر: هذا اتصالك بالعالم الخارجي . الفؤاد : هذا تفكيرك وتأملك الداخلي .

العلم فـ يضة . والعلم حياة . وان الفجوة الحضارية بيننا وبين غيرنا من المجتمعات القيادية فى العالم المعاصر، هى فجوة علمية ، فى أبرز مجالاتها . والبحث العلمي الآن أصبح جهودا جماعية ، تقوم بها مؤسسة ، يؤمن كل فريق من الباحثين فيها ، بروح الجماعة والتعاون . وتنسق جهودها على الاصعدة الوطنية والاقليمية ، فى تفاعل مستمر مع تيارات الفكر العالمي .

واذا كان جانب كبير من النشاط العلمي ، الاساس الاخلاقي النابع من العقيدة ، والاخلاص الذى يحول دون الانحراف ، والاحساس العميق بأن العلم عبادة وقربة الى الله ، كما هو عمل صالح للمجتمع :

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ (فاطر : ٢٨)

ننتقل الى الآيات التالية وهى قول الله تعالي :

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا

وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

والشرك نوعان :

أحدهما : أن يجعل الانسان لله ندا ، يدعوه كما يدعو الله . وهذا هو الشرك الاكبر. وهو الذى قال الله فيه :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(النساء : ٣٦)

وقال تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

(يونس : ١٩)

الثاني : الشرك الاصغر، كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوق ، وعدم الاخلاص لله تعالى فى العبادة .بل يعمل لحظ نفسه تارة ، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة فله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب(١) .

أما التوحيد فحاصله البراءة من عبادة كل ما سوى الله(٢) والاقبال بالقلب والعبادة على الله ، والايمان بأنه مالك الملك ، له الحكم فى الاولى والآخرة ، قال الله تعالى :

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ (الزمر: ١٢–١٥)

ولقد وضع لنا النبي عليه الصلاة والسلام موازين تعيننا على معرفة الخير والشر والخطأ والصواب . ولنذكر بعض هذه الموازين :

— « البر: حسن الخلق . والاثم : ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس » أخرجه مسلم والترمذي عن النواس بن سمعان(٣) . وقال عليه الصلاة والسلام : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا ، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا : من نظر في دينه الى من هو فوقه ، فاقتدى به ، ونظر فى دنياه الى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه ، كتبه الله شاكرا صابرا . ومن نظر فى دينه الى من هو دونه ، ونظر فى دنياه الى من هو فوقه فأسف على ما فاته منها ، لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا »(٤) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن العاص رضي الله عنه .

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

لهذه الآية مكانة خاصة فى سورة يوسف . فهى الآية الوحيدة التى بدأت بأمر الهي الى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، بعد أن قص عليه الله تعالى أحسن القصص .

وهى ثمرة وتلخيص لما قبلها . وما بعدها تأكيد وتوضيح لها :

١ ــ فالسبيل فى هذه الآية منسوب الى النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من الله تعالى .

٢ ــ و يأتي السبيل فى آيات أخرى منسوبا الى الله تعالى فى مثل قوله تعالى :

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

(النحل : ١٢٥)

٣ ــ و يأتي السبيل فى آيات أخرى منسوبا الى المؤمنين فى قوله تعالى :

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

(النساء : ١١٥)

٤ ــ و يأتي معروفا يدل عليه سياقه فى الآية الكريمة فى مثل قوله تعالى :

وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

(الاحزاب : ٤)

٥ ــ وقد يأتي موصوفا بصفة ملازمة له فى مثل قوله تعالى :

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾

(غافر : ٣٨)

وصفوة القول ، أن السبيل الحق ، يأتي فى القرآن منسوبا الى الله تعالى فهو الاول والآخر والرب واليه المنتهى ومنسوبا الى المصطفى عليه الصلاة والسلام فهو الاسوة الحسنة والداعي الى الله

بـاذنـه ، ومـنـسـوبا الى المؤمنين : فهم عماره وسالكوه والداعون اليه بـاذن الله ، ومـنـسـوبا الى صفة فيه : كالرشاد ، ومعرفا يبينه السياق القرآني .

يـأتـي الامـر الالهي للرسول عليه الصلاة والسلام فى هذه الآية : « قل هذه سبيلي » .

بـالـضـمير المـتـصـل : الـدال عـلـى الـقـرب ، والقول الدال على الاعلان والاعتراف والاعتزاز بفضل الله تعالى : « ادعو الى الله على بصيرة » .

الـرسـول لا يـدعو الى نفسه . هو مبلغ عن ربه :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾

(الاحزاب : ٤٦)

واذا كـانـت الـسـبـيـل تـأتي منسوبة الى الله والى الرسول والى المؤمنين فكيف تطابق هذه الآيات مع الدعوة الى الله وحده .. ؟

ان الله تـعـالـى هو الحق . وله دعوة الحق . ونحن ندعوه سبحانه ، ونـدعـو الـى طـر يـقـه بـاذنـه . و بين أيـدينا نور القرآن الكريم ، وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام توضحان لنا منهاج الدعوة الى الله .

وأصـل الـدين والدعوة عبادة الله وحده ، لا شر يك له ، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه ، قال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ ﴾

(الشورى : ١٣)

وقال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(الزخرف : ٤٥)

وقد ثبت فى الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انا معاشر الانبياء ديننا واحد ، الانبياء اخوة لعلات » والاخوة لعلات هم لأب واحد وأمهات شتى .

فالرسل متفقون فى الدين الجامع للاصول الاعتقادية : كالايمان بالله ورسله واليوم الآخر، وللاصول العملية : كالاعمال العامة فى مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَٰحِشَ

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

(الانعام: ١٥١–١٥٣)

ومثل قوله تعالى فى سورة الاسراء:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

(الاسراء: ٢٤)

الى آخر الوصايا.

فهذه الامور هى من الدين الذى اتفقت عليه الشرائع كعامة ما فى السور المكية. والخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة.

أما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة ، كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب الله ورسله ، ولهذا قرر فيها الشرائع التى أكمل الله بها الدين ، كالقبلة والحج والصيام والجهاد ، ونظم الاسرة وأحكام الاموال بالعدل كالبيع ، والظلم بالربا ، والاحسان كالصدقة .

ولهذا كان الخطاب فى السور المكية « يا أيها الناس » لعموم الدعوة الى الاصول . فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، وعز بها أهل الايمان ، وكان بها أهل الكتاب خوطب هؤلاء وهؤلاء : فهؤلاء « يا أيها الذين آمنوا » وهؤلاء « يا أهل الكتاب » أو « يا بني اسرائيل » ، كما جاء فى بعض السور المدنية خطاب « يا أيها الناس » كما فى سورة النساء والحج ، وكذا فى البقرة . فالمؤمنون داخلون فى كل من الخطابين « يأيها الناس » و« يأيها الذين آمنوا » والدعوة الى الله تتضمن الامر بكل معروف ، والنهي عن المنكر.

ان الدعوة الى الله تجب على كل مسلم ، لكنها فرض على الكفاية . وانما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه ، اذا لم يقم به غيره . وهذا شأن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبليغ ما جاء به الرسول ، والجهاد فى سبيل الله ، وتعليم الايمان والقرآن .

وفروض الكفاية هذه تختلف عن فروض الاعيان التى يقوم بها كل مسلم كالصلوات الخمس والصوم والزكاة والحج .

ننتقل الى قول الله تعالى فى الدعوة الى الله « على بصيرة » ما المقصود من هذه الكلمة .. ؟

يقول الامام ابن تيمية :

القيام بالواجبات : من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج الى شروط يقام بها ، كما جاء فى الحديث ، ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، أن يكون فقيها فيما يأمر به ، فقيها فيما ينهي عنه ، رفيقا فيما يأمر به ، رفيقا فيما ينهي عنه ، حليما فيما يأمر به ، حليما فيما ينهي عنه(١) .

فالفقه قبل الامر ليعرف المعروف و ينكر المنكر. والرفق عند الامر ليسلك أقرب الطرق الى تحصيل المقصود ، والحلم بعد الامر ليصبر على أذى المأمور المنهي فانه كثيرا ما يحصل له الاذى بذلك .

ولهذا قال تعالى :

وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾

(لقمان : ١٧) .

وقد جمع الله سبحانه بين التقوى والصبر في مثل قوله تعالى :

۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

(آل عمران : ١٨٦)

والبصيرة تقتضي أيضا معرفة بظروف المجتمع ، وظروف المخاطبين ، والموضوعات التى تشتد اليها حاجة الافراد أو المجتمع ، لتكون الدعوة جامعة بين أصول الدين وحاجات الناس .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ

فى هذه الآيات دعوة الى السير فى الارض ، والنظر فى أخبار الأمم السابقة ، وربط الماضي بالحاضر ، ثم ربط الحاضر بالمستقبل والدنيا بالآخرة . وبهذا يكون الانسان متقيا ربه ، سائرا فى نور من وحيه ، ومن العقل الذى أنعم الله به عليه .

فى الآيات توضيح أن التاريخ لا يسير سيرا عشوائيا ، وأنه ليس مجموعة من المصادفات ، أو الحظوظ ، أو الاحداث غير المترابطة . وامتداد الدراسة ــ كما توضح الآيات ــ له أبعاد ثلاثة واضحة :

الأول : امتداد أفقي ، تتسع به آفاق الرؤية و يتمثل فى قول الله تعالى : « **أفلم يسيروا فى الارض** » .

الثاني : امتداد طولي أو تعمق زمني ، يتمثل فى قوله تعالى :

« فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » .

الثالث : ترابط موضوعي يتمثل فى كلمة « عاقبة » وتحمل ترابط بين الاسباب والمسببات ، ومكونات البيئات الطبيعية والبشرية التى كانوا يعيشون فيها .

فى هذا التاريخ ــ كما بين القرآن الكريم بنماذجه المتكاملة ، وكان أكثر ذكرها فيما نزل من القرآن بمكة ــ تبدو أمم غنية وأمم فقيرة ، و يبدو العدل والظلم ، والايمان والجحود والتخطيط والتسيب ، وتقوى الله والبعد عن سواء السبيل .

ومع كل ما نخرج به من نتائج ، ومن سنن فى التاريخ ، تذكر أيها المسلم وأيها القارىء لكتاب الله : **« ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون » .**

ومن تعميم التاريخ ننقل الآيات الى تخصيص فى أمر الرسالة ، والذين آمنوا ، والذين استمعوا الى الدعوة . وفى هذا الانتقال تحس أن الطريق الى الله يحتاج الى عزائم قوية ، فهو طريق الانبياء والرسل ، والذين اتبعوهم باحسان ، طريق فيه متاعب وصعوبات ، ولكن عاقبته الخير ، ونقرأ معا قول الله تعالى فى الآية التالية :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ

حتى اذا استيأس الرسل ، لم تقل الآية يئس الرسل ، فلا يأس والحمد لله ، ولكن جهاد طويل ، الرسل فيه على ايمانهم العميق بالله تعالى ، ومن ورائهم المؤمنون ، وهم على ثقة بنصر الله وصدق وعده ، وان لم يقيده بزمان ولا مكان ولا صفة .

ولم تذكر الآية من أي شيء استيأس الرسل ؟ نعود الى صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام نسأل ما عندهم من علم ، وما دار من حوار حول الآية :

روي ابن أبي مليكة ، نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال وظن الرسل أنهم كذبوا لأنهم بشر ، ألا ترى الى قوله : « **حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله** » فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فأنكرته ، وقالت : ما وعد الله محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا الا وقد علم أنه سيوفيه ، ولكن البلاء لم يزل بالانبياء حتى خافوا من أن يكفر بهم الذين كانوا آمنوا بهم . يقول الامام الفخر الرازي هذا الرد والتأويل فى غاية الحسن من عائشة رضي الله عنها .

وهذا الجهد الذى يبذله الرسل والمؤمنون ، وصبرهم على ما يلقون من عنت ومقاومة ، انما هو ابراز لعناصرهم الكريمة ، وأسوة لمن بعدهم ، ورفع لدرجاتهم عند الله .. وهنا نجد الترابط القوي بين هذه الآية و بين قوله تعالى فى سورة البقرة :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا

يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ (البقرة: ٢١٤)

فالذين أنجاهم الله هم الرسل، والذين صدقوا بما جاءوا به. أولئك الذين اختاروا الايمان طريقا، أما عذاب الله و بأسه، فلا يرد عن القوم المجرمين.

قريب من هذا أو نظيره، ما نجده فى قصص الانبياء من اشتداد البلاء، حتى النقطة التى يكاد أن يفرغ عندها الجهد البشري، فتأتي رحمة الله، و ينزل نصره، بعد أن يبذل الرسل والمؤمنون الجهد، لا قبل ذلك. أما أذا كان النصر بغير جهد، فكيف تتميز مراتب المؤمنين، و يبدو جهاد المجاهدين، وصبر الصابرين؟ ولنذكر الرسول عليه الصلاة والسلام فى عودته من ثقيف، وفى غار ثور، وفى غزوة بدر، وفى غزوة أحد والاحزاب، التى وصفها الله بقوله:

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

(الاحزاب: ١١)

نأتي بعد هذا الى الآية الخاتم فى هذه السورة:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

هذا القصص الذى جاء فى سورة يوسف ، وما سبقها ، وما نزل بعدها ، عبرة لأولي الألباب .. انه ليس مجرد معرفة ، أو متعة ذهنية ، أو تزجية وقت ، ولكنه مجال دراسة وتمعن علينا أن نتعمق فيه ، لنستخرج منه العبرة . هذه ناحية أولى يقول الله عنها انها « لأولي الألباب » أصحاب العقول الذين يربطون بين الحقائق ، و يستخرجون منها القواعد فى انصاف وعدل .

الناحية الثانية : « ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه » فما جاء فى القرآن من تاريخ الأمم السابقة حقائق . وهوعليها مهيمن . هو ليس قصصا خياليا . هذه الحقائق يصدقها ما بقي من الكتب السابقة على أصوله التى نزلت بها من عند الله . وما تكشف عنه الآثار والحفائر .. وذلك بعد تمحيص ما فيها من مادة علمية . ذلك لأن بعض هذه الوثائق التاريخية كانت فى زمانها صناعة ، قد يتقرب بعض المؤرخين بها ، الى الحكام ، أو يحاولون طمس صفحة أو صفحات من التاريخ . فهذه الوثائق ليست لها قداسة ، وانما هى مجال بحث علمي منصف .

الناحية الثالثة : وتفصيل كل شيء .. وكل شيء هنا لا تشمل الاحاطة الكاملة ، فليست هذه سنة القرآن فى القصص ، وانما

تفصيل كل شيء يستحق التفصيل . وقد رأينا فى السورة اجمالا لمواقف ، وعبورا سريعا من مواقف الى أخرى .

الناحية الرابعة : أنه هدى ، والهداية ترتبط بالمستقبل و بالعمل للغير ، ومن هذا ربط الدراسة بالعبرة بالحاضر بالمستقبل وتبدو من هذا النظرة التطبيقية فى القرآن باعتبار الحياة تدفقا مستمرا ، وأن الحاضر نقطة متحركة فى الزمن . ان الحاضر كان بالامس مستقبلا . وغدا يصبح ماضيا . والهدى هو النور الذى يسعى بين أيدينا ، ونسعى به ، من كتاب الله ، ومن البصيرة التى أودعها الله فى عباده .

الناحية الخامسة : انه رحمة .. وان بدا فى طريق الخير أنه صعب . ان البعد عن الشهوات والمغريات يحتاج دائما الى فطم النفس ، حتى تتعود على الحياة السوية . وان حسن العاقبة تدفع المؤمن دائما الى السير على طريق الخير . وهذه حقيقة رحمة الله بعباده أن يعطيهم الاختيار وأن يعين الاخيار ، وأن يتوب على العصاة .

و يتم هذا فى دائرة الايمان ، ولهذا كان الختام بعد أن ذكر صفات القصص القرآني أنه « لقوم يؤمنون » . و باب الايمان والعمل والتوبة مفتوح أمام العباد .

ونعود الى قصة يوسف لنرى فيها هذه الجوانب جميعا ..

فيها العبر الكثيرة ، وتفصيل نوازع النفس الانسانية ، ومناهج التخطيط ، فيها الهداية والرحمة .

كان يوسف عليه الصلاة والسلام متفاعلا تفاعلا ايجابيا مع المجتمع الذى يعيش فيه . معه الايمان فى قلبه ، والحكمة التى افاضها

الله عـليـه ، وحـفـظ الامانة والوفاء ، والقدرة على العفو بعد المقدرة . وتـقـلـبـت بـه الايـام مـن حنان الابوة ، الى غيابة الجب ، الى اكرام المـثـوى ، الـى التـهـمـة الـبـاطـلـة ، الـى أعماق السجن ، الى الملك ، ومـسـئـولـيـة الـحـكـم .. وظل هو هو: الصورة الكريمة للايمان . الايمان الذى يعلو على الضعف ، وعلى طغيان القوة معا ، و يعلو على شهوات الانتقام وشهوات الهوى ، والذى تمثل أفضل ما يتمثل فى دعائه :

« رب قـد آتـيـتـنـي مـن الـمـلـك وعـلـمتني من تأو يل الاحـاديـث فـاطـر الـسـمـوات والارض ، أنـت وليي فى الدنيا والآخرة ، توفني مسلما وألحقني بالصالحين » .

وآخـر دعوانا « أن الحمد لله رب العالمين » ، وأستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم ونسألكم صالح الدعوات .

والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته .

الفهرست

الفهرست

كتب للمؤلف

أولا ــ المجموعة الإسلامية :

١ ــ دروس من غزوة أحد ــ عالم الكتب ، دار المعارف ــ القاهرة .
٢ ــ مواقف اسلامية ــ دار المعارف ــ القاهرة .
٢ ــ أحاديث رمضان ــ دار المعارف ــ القاهرة .
٤ ــ خطوات نحو القدس ــ دار المعارف ــ القاهرة .
٥ ــ الاسلام والعصر ــ دار المعارف ــ القاهرة .
٦ ــ الاسلام والمستقبل ــ دار المعارف ــ القاهرة .
٧ ــ فى المحراب ــ دار الجمهورية ــ القاهرة .
٨ ــ الاسلام والتفرقة العنصرية :
أ) باللغات العربية والانجليزية والفرنسية ــ اليونسكو ــ باريس .
ب) باللغة العربية ــ دار المعارف ــ القاهرة .
ج) باللغة العربية والانجليزية ــ رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ــ قطر
د) باللغة الفارسية ــ اليونسكوــ طهران .
هـ) باللغة الصربية الكراوتية ــ المحلس الاسلامي ــ سيراجيفو يوغسلافيا .
و) باللغة الانجليزية ــ الناشرون المسلمون ــ الكويت .
٩ ــ مع الرسول والمجتمع ــ مؤسسة الصباح ــ الكويت .
١٠ ــ أيها الابناء هذا دينكم ــ مؤسسة الصباح ــ الكويت .
١١ ــ آية وقصة ــ مؤسسة الصباح ــ الكويت .
١٢ ــ القرآن والتاريخ ــ دار البحوث العلمية ــ الكويت

ثانيا ــ المجموعة الجغرافية العامة والإسلامية :

١٣ ــ قضية كينيا ــ وزارة الثقافة ــ القاهرة .

١٤ ــ دراسات فى أفريقيا المعاصرة ــ دار القلم ــ القاهرة .

١٥ ــ جغرافيا الاسلام فى أفريقيا ــ معهد الدراسات الاسلامية ــ القاهرة .

١٦ ــ فى أرض النيل ــ عالم الكتب ــ القاهرة .

١٧ ــ دراسات فى الجغرافيا البشرية للسودان ــ معهد الدراسات العربية ودار المعارف ــ القاهرة .

ثالثا ــ دراسات عربية بالاشتراك :

١٨ ــ دراسات فى المجتمع الاسلامي ــ الانجلو المصرية ــ القاهرة .

١٩ ــ المجتمع العربي ــ النهضة العربية ــ القاهرة .

عن المؤلف

شغل المؤلف المناصب العلمية والتنفيذية الآتية :

١ ــ أستاذ الجغرافيا البشرية بجامعة القاهرة .
٢ ــ مدير جامعة الكويت .
٣ ــ نائب رئيس الوزراء للشؤون الدينية ووزير الاوقاف ووزير شؤون الازهر بجمهورية مصر العربية .
٤ ــ المستشار بالديوان الأميري بالكويت .
٥ ــ عضو اللجنة العالمية لتاريخ الانسانية الثقافي والعلمي باليونسكو ــ باريس .
٦ ــ عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية « مؤسسة آل البيت ــ عمان/الاردن » .



تنفيذ وطباعة
دار المعرفة